

تصير

مرة أخرى نعود الى قضية الورق الثقافى فى تونس ، والى مفعول تلك القضية على حركة النشر ، ومن ثمة على حركة الانتاج والتأليف .

وبالرغم من أن سعر الورق ارتفع عالميا فاننا فى تونس ازداد الطين عندنا بلة فكانت نسبة الترفيع فى مرتبة الصدارة بالقياس الى غيرنا .

هذه نقطة . ونقطة ثانية تتمثل - لا يمكن أن نقول فى التراجع - بل فى التباين بين السياسة التى انتهجتها دوائر المسؤولية فى أول الأمر ، وهى السياسة التى أعلن عنها تماشيا مع ضرورة مساعدة قطاع النشر وما يتبعه - على النمو والنهوض فى بلد - مهما قيل عنه وفيه - فهو ما يزال يعانى التخلف الظاهر والخفى ، والواضح والمبطن ، ومازال منظوره العام للثقافة منظورا باهتا لا يخلو من لا مبالاة فى أحيان كثيرة لاسيما من الاوساط التى عليها - وطنيا - أن تقوم بواجبها نحو الثقافة مساندة وبعثا شأن الذى يحصل فى الأهم والشعوب العازمة بصدق على النهوض والتقدم .

وما دام الامر هكذا فالسؤال المطروح بالحاح هو : هل من حق الثقافة على الدولة أن تأخذ بيدها حتى ترشد ، وأن تساعد على إيجاد الاطار والمناخ ، وعلى تنشئة الوازع وبعث الحمية فى المواطن والمؤسسة على حد سواء ؟

بذلك يمكن أن تطفو على السطح فكرة أن الثقافة ليست هما من هموم الدولة والنظام العام بقدر ما هي مسؤولية وطنية عامة نصيب الدولة فيها نصيب المراقب من بعيد أو المستشرف . وإذذاك يمكن القول بأن قضية الورق لا تكون بنفس الحدة والخطورة على الانتاج الثقافى التى نخشاها اليوم . والحالة تلك هى الحالة الراهنة .

قصص



الحانة الملعونة

انفتحت البوابة الجديدة ، وارتفع صوت أمر يناديني فنهضت أرتعد خوفا . ومن يدري فلعل باب التحقيق لم يغلق بعد ، فأنا أنزل ضيفا على حكومة أجنبية وقد حجزوا لي بيتي في نزل لا يغادره الانسان وهو نقي السوابق ، هل فهمت أن هذا النزل هو سجن « لاسانتى » والسجان يأمرني وصوته خال من كل خشونة أن أتلقي زيارة .

قلت : من هذا الذي فكر في .. أن يضيع وقته ليراني . ليس لي أهل هنا . بل إن بعضا من أهل بلدي هم الذين زرعوني هنا . وفكرت في رفض الزيارة ، فلعلها تضاعف أتعابي .. أخيرا تشجعت اذ عولت على المكروه لوجدت .

كان وجه عصمان الذي تبينت - رغم سمرته - ان صفرة تعلوه . قال يحدثني باحتشام فكأنما هو المذنب السجين وأنا البري الطليق .

- كيف وقعت في المصيدة وقد حذرتك ؟ فلعل التحذير هو الذي أغراك بالتحدي فيا ليتني ما حذرتك . قال عصمان ذلك وطأ رأسه .

قلت : لا عليك فأنا الذي خدعت نفسي وغررت بها .

- كنت أعرف أنهم سوف يستنجدون بالطمع والخداع لاغرائك . قال عصمان ذلك وضرب كفا بكف مرات وادرف . ايه أكمل على واجد لك مخرجا فما ينتظرك أسوأ . قل ولا تخف شيئا . صارحنى . قلت : فعلوا معي أول الأمر أكثر مما يصدر عن الكرام . حتى نسيت كل حذر وشك . قل لي يا عصمان أيمكنك أن ترفض لهؤلاء طلبا بسيطا . أن تحمل حقيبة الى عنوان محدد مقابل ما منحت من كرم وما قدم من وعود والله يا عصمان يا صديقي . لقد فكرت فيك . وقلت هذا يمكن أن يظلنا معا .

ولم يتركنى اواصل فقد اكمل هو القصة . فكانه كان احد ابطالها اذا قال :
وفى الحقيبة أشياء محضورة اكتشفها البوليس الذى كان يتابع العملية . انهم
قدموك للبوليس كعربون ولاء له .

فما اظن الا انكم تبعثون بكل نفايات مجتمعكم هنا . واذا كان الامر كذلك
فنعم المجتمع أنتم . أما اذا كان هؤلاء مثلكم فبئس القوم قومك . كل الفئات
يأويها سقف أخلاقي واحد . ويريد كل منكم أن يأويه سقف وحده . ولا يرضيه
الا أن يحزب على الباقيين .

قلت بانكسار كفى يا عصمان . فانت تزج بي في سجن آخر أقسى من
الذى يأوينى . هلا يصاب الجسم ببعض البثور أحيانا . فهل أنكرت من
عشرتى شيئا تتأذى به نفس بشرية .

— انكم تدعون المرض فتصبحون مرضى من غير علة . يوحون اليكم بكل
حقير . يوحون بالمرض والعجز فتصبحون مرضى وعاجزين . يغرونكم ببعضكم
فتصبحون قادرين ..

وضعت كلتا يدايا أحجب بهما وجهي . وكنت أصرخ فأشبعه شتما .
أحسست أنى أتنازل عن رجولتى . أحسست انى فى حاجة الى دمة تغسل
هزيمتى . وقلت بصوت واحد ما قدرت على غيره .

— الأنى كنت ضحية غباوتى والطمع . فمن أنا حتى أتحمّل أوزار الناس ؟
فما أنا الا كمشة من تبين لو وضعت فى ميزان ما حركت كفته .

— المезде ان كنت تجاوزت المألوف من القول .

قال عصمان كأنما يعتذر وأردف :

— إن كنت فعلت فأنما أخاطب نفسى أيضا . أخاطبها لأنى لم أجد مكانا
أنسب من هذا ولا شخصا مثلك أرغمه على الاستماع .

كانت الكلمات مكتوبة بخط عصمان . على ورقة أشهى والذ من اللوز والتفاح
وكل ما فى السلة التى قدمها . بل أشهى من التبغ الذى تحويه هديته . لقيد

قرأتها آلاف المرات وما مللت واضب على صلواتك فانك إن تهملها أضعت نفسك أمام الله وأهملك . انا معك ما دمت مع الله تحدث اليه فانه وحده يستمع اليك وللأصوات الضعيفة وثق به أولا وأخيرا .

تلك كانت هدية عصمان وهل أئمن من كلام يرشدك الى الحق . لقد كنت وأنا صغير أتعلق بأذيال جدّ وهو يريد المسجد . يقوم بيننا خصام هو يجذب طرف ثوبه ويزجر وأنا أتعلق به مصرا تشتد قبضتي الصغيرة . تتشبث بأصرار . يقول جدى يائسا .

- إننى ذاهب لمقابلة الرب وسوف أعود لأصحبك .

- وأقول إنني أريد أن أراه إنني أحبه .

- ولكنه لا يريد أن يراه الأطفال الصغار مثلك .

- أتركنى خارج الباب . وسأطل من ثقب الباب . وفاجأني ضحك أحسست أنه ذهب بكل همومي . ولن أكشف لك عن عالمي الذي ولجته فعار على الرجل أن يعود الى ملابسه وهو صبي فيرتديها .

مجموعة من الكلمات يستعملها أبناء بلدتي نيابة عن الطرد . أن تبقى عاطلا عن العمل وفي العاصمة باريس فتلك أمنية تهديها لأعز صديق شريطة أن تؤمن له السكن والغذاء لكن الحال بالنسبة لي عكس ذلك . كنت أتشم رائحة أهلي وأتصيد كلمات لغتي . أتعلق بكل صلة تربطني من لغة أو دين أو وطن علني أجد لي مخرجا من سوء طالع يلاحقني . أبحث في إقامة العمال عن ليلة أقضيها على فراش او لقمة تكبت الام جوعي .

أخيرا ذهبت الى الله في بيته فهو لن يهملني ولن يمل . كنت أصلي وأطلب منه أن ييسر لي فرج أبواب الرزق . وكان هو قبالي يرفع يديه مثلي . ولا شك أنه يطلب لنفسه أيضا . وقلت في سري أخاطبه : أطلب ما شئت فلن تفرغ خزائن الله . حتى ولو امتدت اليها أيدي البشر جميعا وفي لحظة واحدة سوف أطلب لك ولنفسى .

وما قدفنا باب الجامع الا ونحن نتحدث . لست أدري ان كنت أنا الذي بدأ الحوار بالتشكي أو هو عرفته اذن أنه عصمان . بكر عصمان . مغترب من السينغال قضى شطرا من عمره في خدمة الجيش الفرنسي غادره دون ان ينال

رتبة أو جزاء . تقلب في العديد من الاعمال . لكن أغلب ما خالطه كان تافها وحقيرا لا يتعدى حمل الاثقال أو تسريح مجارى الفضلات وأبدع ما وصل اليه من الاعمال ان ينخرط في حضائر اشغال البناء ولعلها أشق .

لم يكن عصمان محظوظا حسب رأيه . ولكنه لم يعرف اليأس ولم يخالطه القنوط . فهو كما يقول يجب ان يحيا . وعليه لكي يفعل ذلك أن لا يتفق مع أى نمط من أنماطها أو يعاديه .

انا وعصمان مشينا كثيرا وتحدثنا كثيرا . تحدث هو عن نفسه وتحدث عن هؤلاء الناس . تحدث عنهم بحياد تام فكأنه يقرأ في سيرة من كتاب . وافترقنا قريبا من الإقامة العمالية حيث التقيت بنفسى بكل ثقلى وفرضت ضيافتي عن أحد معارفي من العمال .

صباح الغد التقيت بعصمان عند باب الإقامة حيث فارقتة . حتى ظننت أنه لم يغادر مكانه . منذ افترقنا .

سألنى باحتشام كأنه يرتكب ذنبا :

– ما الذى حجب اليك الاغتراب ؟

– قلت لقد هربت من بطالة موسمية .

– وها أنك وقعت فى أخرى مزمنة .

قلت كانت الأولى خالية من القسوة .

– هل خلفت ما يدفعك للاغتراب . أعنى زوجة أو أولاد .

– قلت كلا فليس وراثي غير رغباتي .

ورد عصمان : يمكنك أن تمارسها في أى مكان آخر فما من أحد أرضى رغباته حتى لو وجدها فى انتظاره أبدا تبقى الراكض وراءها ولن تدركها . تريد أن تكون عنصرا فى هذا الزمن الردى . طاطىء رأسك وبع لسانك وعيونك للآخرين . اسمع .. يا .. ذكرني باسمك . قلت صلاح الدين .

– هذا الاسم فقد من أرضكم . قل لى عن الاسم الذى يناسبك . أو أتركنى أنحت لك الاسم المناسب . يا عبد الشهوات . عندما تحتجب رغباتك ستعود لك سعادتك من تلقاء نفسها . اكمل عصمان جملته وهو يلهث فكأنه أراح نفسه من حمل كان يشغل كاهله .

قلت : فما أمرك أنت ؟

- أمري أنا قال عصمان : أنا متهم فى تفكيرى . فى قشرتى فى تاريخى .
لا لن أزيدك فأنا تعودت المتاعب . وأنت تصادفها للمرة الاولى .

قلت وقد رثوت لحاله : من أتهمك ؟

فرد بأسى : الذى اتهمك أنت أولست أنت وأنا وإلا من تكون ؟

- يكذبون عليك قلت بعفوية وأنا لم أفكر فيها ولا عنيت قصدا

- نعم رد عصمان وهو يمسح عينيه حتى ظننت أنه يبكى وأردف : ولكن
الكذبة تصبح واقعا ولقد حوصرنا بسياج من وهم . فجعلونا لا نتشبهت فى
أنفسنا فنتعرف عليها .

وصمت أخيرا وصدرت عنه تنهدات ثم استأنف حديثه بصوت لا يشبه
ما كنت أسمعه من لحظات .

- يكفى أن نبحث عن الشغل فما كنا بصددده لا يثمر خبزا .

كنا فى اتجاه محطة الاوتال فالاقامة العمالية تقع فى « ارجنتاى » من
ضواحي العاصمة باريس وكان لابد أن أغامر فأتخطى الحواجز تهربا من دفع
تذكرة السفر . ويظهر أن عصمان كان أسرع منى لاستهلاك تلك الوسيلة
لذلك مد الى يده مودعا لما انتهينا الى باب المحطة ولكنى فاجأته فجلست الى
جانبه والقطار يتحرك . فالتفت الى مبتسما وغمز بعينه يحذرنى . ولقد تعودت
أن أنزل فى محطة « كولومب لى بوا » حتى لا اصطلم بالرقابة . يومها شجعني
وجود عصمان بجانبى . ولم أشأ أن أظهر الخوف فينسبني الى الجبن قال
عصمان وهو يلتفت الى مكان الأحداث وقد عرف كيف ينفلت من الرقابة
ويجرني معه الى النجاة لو يجد الانسان شغلا يمسح به ذل البطالة إذن لأصبح
برغمهم انسانا .

- فقلت أختبر خلقه ، هناك الاف من الناس يعيشون من عرق الآخرين فلم
لا تكون أحدهم . أعنى أنا وأنت .

- أفصح عن قولك . تعنى أن ..

- قصدى أن الأبواب الشرعية قد أغلقت فى وجوهنا فلماذا لا نسلك
الطريق المخالف .

- وهل تقدر على السير فيه . دون أن تقف أمامك حواجز . قالها عصمان وبان الجذ في لهجته : فأجبت دون أن أراعى لكلماتي وزنا وما قدرت ما قد ينتابه .

- أكسرهما واحدة فواحدة قبل أن انكسر أنا

- تذكر أنك لست وحدك هنا . ولن يجهدوا أنفسهم ليجدوا لك عذرا ولكنهم سيعممون القضية فتشمل كل عرق فحتى الذى سيلد بعد سنين ستشمله الشتائم . لن يشهدوا بأنك جائع ولو مت ولن يقولوا فعل هذا لأنه بطل عاطل عن العمل . بل سيقولون مغتاضين ، انها عادات فى قومه . كل خبائث العالم كنتم صانعوها وكل جريمة انما صدرت عنكم . ألا يكفى ما نحن فيه . حتى نزيد فنجلب اللعنة الى أهلنا .

اسمع يا عبد الشهوات أنا من بلد وأنت من بلد آخر . أنت تقدر على مغالطتهم بلونك وأنا لا أنزع سوادى ولكن يجمعنا دين واحد فهل فى هذا الدين شيء مما فى عقلك .

قلت وأنا أتصيب عرقا :

- إنها لكلمات . يرددها القنوط فما تعودت الفعل المشين وليس فى نيتي ان أحمل الاساءة الى أجنبى فكيف أجرحها على أهلى .

من محطة « سان لازار » الى سوق « لا ليكير » مباشرة نمشى وما دار بيننا كلام وفى احد المنعطفات جذبنى عصمان من يدى . وسرد علي مواعظ من حياته هى نتف منها فقط حيرتى فقد أطلعنى على صور تعرفت من خلالها على زوجته الفرنسية وأطفاله . كشف عن توترات حياته العائلية ولكنه استخلفنى بالله ان أنسى ما سمعت ولن أعيدده مرة أخرى حتى لنفسى بينى وبينها مسكين عصمان لقد قاتل من أجل أن يقتل . لكنه كان يؤمن بأن الحياة يأتى بها كل مطلع شمس وكل نقيض يدوس على نقيضه كلام كثير قاله عصمان وأحبست بعدها أنه حصن عقلى وكتب على جسدى كل حكم الدنيا . وأكمل الحديث ونحن نستأنف السير وفجأة أشار عصمان الى مبنى نحوى فى اسفله مقهى .

- هل تعرفت على صاحب هذا المقهى . انه احد مواطنيك

- قلت لا أسمع عنه قط

- اننى أحذرك منه .

ويا ليت عصمان لم يفعل ذلك . فقد أثار فى نفسى التحدى وددت معه أن أتخلص من صحبة عصمان وما شيتته واحساس يرهقنى بأثنى مرغم . وأخيرا نكلم عصمان فأحسست أنه يكبلنى بالحديد ولكن كلماته كانت تعبيرا عما فى نفسى فكانه قرأ أفكارى . فقال كأنه يهمس فى أذنى مما جعلنى أضطرب .

- بظهر أنك سريع الانفعال تنعكس على نفسك كل المظاهر الخارجية فتود معاشرتها . اننى أخاف عليك من نفسك . خصوصا وأنت خال من كل تجربة . قلت إننى أو من بالمنزلة الوسطى . وقاطعني قائلا :

- وذلك أهم عيب فيك . طموح تحسد عليه لقد كنت بصدد أن أحذرك من الآخرين ولكن الآن أحذرك من نفسك فهى الخطر الوحيد الذى يمكن أن يغتالك .

وكنت أحث نفسي على التخلص من هذه الآفة السوداء يا عصمان . وقد كان منذ دقائق أقرب الناس إلى نفسى . وحضرتنى الصورة التى وارىت بها جثة أبى والرغبة فى الاسراع فى دفنه . ولعل أفكارى هذه غيرت مسافات وجهى ولعل عصمان تبين شيئا من الملامح ذلك انى شمتت من كلماته رائحة المראה وهو يمد يدا يودعني

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

- سأراك هذا المساء حتما . ولربما تكون قد اصطلحت مع نفسك . ولن أكرر تحذيري فذلك المكان مأوى الأبالسة ؟؟ . انك تدفع بنفسك الى بؤرة . فاصفم ثيابك وأنت تلجه وانفضها وأنت تخرج من هناك . دخلت لا كما يدخل الانسان الى مقهى . لم انخدع الى هذا الاغراء الذى يلف المكان . من خلال الابهة ومظاهر التجميل . ويظهر أن نصائح عصمان سيطرت على كل عقلى فقد ظهر لى كل شىء خدعة ومن ورائها شر .

تقدم منى شاب أنيق المظهر سلم على بادب لا افتعال فيه وسألنى ان كنت أحمل جنسيته فهو يدعى كمال ومن الشمال من موطنى .

- قلت ادعى صلاح الدين . وتم التعارف واستوعب قضيتى وما أنا فيه أظهر الفرح وأحتفى بى وقسمنى هذا المختار يتاجر فى الملابس النسائية وضحك أحدهم وعلق بمن فيها . لم أفهم وقتها ما يقصد والذى علق على ذلك هو سالم الذى يبيع الحشيش الذى تستهلكه البهائم . وحتى هذه فأتنى فهمها . ذلك انى أعرف أن كل شىء هنا معد للبيع قابل للشراء .

وهذا السيد شعبان حافظ بنك الامانات وهذا الجمك شرطي المرور وهذا «لكلوكة» ويعرف بلسبيرين وهذا مفتاح ويعرف بالباس بارتو - لم أعط لهذه الاسماء والشعارات أى تفسير فى تلك الساعة لأنهم لم يتركوا لى الفراغ الكافي وسقطت نصائح عصمان فى كؤوس الخمرة قدموها لى فى طبق من الذكريات فقد استغلوا حنينى للوطن . وقدمت المأكولات لجائع مثلى طال به الشوق الى لقاء اللحم المشوى والبطاطا المحمرة . وأنواع أخرى لم يلتق بها قبل الآن . شبعته حتى نسيت انى التقيت بالجوع يوما .

اخيرا تقدمت صاحبة العيون الخضراء ومدت يدا تصافحنى . لم يزل الجمال يتعلق بها من أسفلها الى الأعلى برغم السواقى التى بدأ الزمن فى حفرها على جبينها .

إنها مدام جاكليين قال كمال وهى فى حاجة الى شاب مثلك تصدق عليه من الخيرات مما يغنيه عن تعب العمل وانها لغنية الى حد التخمّة فلا تنزع نفسك منها . إنها سوف تجربك فكن فى مستوى ما ألفنا فى حقك من كلمات الشناء . تركونا لوحدها وانصرفوا .

- صلادان . قالت جاكليين - سوف نقف هنا الى أن يأتيك الشخص الذى يسلمك حقيبة أو أى شىء انه يعرفك وسيقول لك « جاكو » وسترد عليه بقولك « جاهز » .

وهكذا انقض البوليس وفى الحقيقة ما يحضر تداوله وحمله . وقلت إننى برىء . ولكن من يصدقنى وهكذا سمعت الأبواب الحديدية تغلق خلفى وكلمات عصمان تطن فى أذنى « انك تدفع بنفسك الى بؤرة » فاذا خرجت فانفض ثيابك لعل شيئا من الأدران يعلق بها .

فماذا أفعل وقد غطست بكلي فى الأدران لم يبق لى الا أن أتمسك بما جاء فى الورقة التى كتبها عصمان ولم يبق وجه للامل الا فى طلعة عصمان وها انى أنتظره وأتطلع الى وجهه كل أسبوع على انى لا أقدر أن أضع عيني فى عينيه حياء لا لأنى مجرم فذلك ما يعرف عصمان انى برىء منه ولكن لأنى أطحت بنصائحه وحذرني فعصيته .

التابعي الأخضر

- وانغ ييلين - (*)
تعريب : علي ساسي ومحجوب العياري

الأرز الأسود

عند ذهابك الى الجنوب ، يمكنك أن تلاحظ أن كعكة الأرز الأسود هي الفطور الأكثر شعبية في الجهة ، وهذه الأكلة الخفيفة اللذيذة تصنع من كره في الارز اللزج في لون الحزامي الغامق ، محشوة بالسكر والسمسم ، وبعد أن يتم عصر الارز بقوة داخل قطعة من قماش ، فانه يتخذ شكل حبة زيتون كبيرة ، وعندما نضيف اليه عطر زهور الاوسمونت . Osmanthe (*) ، ونرفقه بفطيرتين ، فان هذا المجموع يكون أكلة محالية فريدة .

وقد كنت في طفولتي آكل هذا النوع من الكعك في أحيان كثيرة . ولكن رغم الكعك الكثير الذي أكلت ، فاني لم أكن لأتوصل الى معرفة كيف يصبح الارز أسود ، كل ما كنت أعرفه هو أن الكعك كان يباع على ظهر مركب .

قبل التحرير ، كنت أقيم مع أمي وخالي على ضفة نهر « كينهواي » في بيت صغير وعتيق ذي طوابق يغطي واجهته وسقفه نبات اللباب المتسلق .

وكان على أمي أن تستيقظ كل صباح باكرا للذهاب الى العمل في مكان بعيد . وقبل خروجها ، كانت توقظ خالي المستغرق في سبات عميق ، وتقول له وهو ما يزال نصف نائم :

- لقد وضعت النقود بقرب وسادتك ، وعليك أن تشتري أربع كعكات عندما يأتي القارب ، وليأخذ كل منكما واحدة في الصباح ، واثنين في الغداء ، انتظرنى لاعداد العشاء في المساء . هل تسمعني ؟ ...
ثم تمضي ... ولا يبقى في البيت الفارغ سوانا ، أنا وخالي - الذي لا يكبرنى الا بأربع سنوات - بائسين كزهرتي لبلاب متسلق ، ضعيفين كئيبين .

(*) وانغ ييلين : كاتب صيني معاصر ، 42 سنة ، أصيل مقاطعة «يانغدو» ، من أهم مؤلفاته : (القط) و (المرأة الفاضلة) ...

وكان أول ما نقوم به اثر مغادرة الفراش ، هو أن يأخذ كل واحد منا مقعدا ويضعه لصق النافذة ثم نشرع فى مراقبة صفحة النهر ونحن واقفان على أطراف أقدامنا فوق المقعد .

كان ماء النهر الملوث أخضر غامقا ، يسيل فى تعرج ، رابطا بين آلاف العائلات على الضفتين ، فى هذا الوقت ، والضباب لما ينجل بعد ، تكون عملية البيع على الماء قد بدأت . وكانت مراكب صغيرة كالحقق تروح وتجيء ، وكنا نسمع صراخ الباعة ونداءاتهم المدوية ، فكان هذا الجو الصاخب والحى يمثل لنا مشهدا فى غاية الطرافة :

– فول متبل ، فول قرفة !... .

كانت هذه نداءات بائعة متوسطة العمر تنطق كلمة «فول» بنبرة أخاذة .

– مراهم وأدهان للزينة !... .

كان هذا نداء بنية بلهجة يانغزهو Yangzhou الغنائية ، وكان صوتها صافيا ومدويا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Saknir.com

– لحم حمار !... لحم حمار محفف !... .

كلمات كان يرددها بائع قادم من الشمال بصوت أجش ومسموع ، وكان من حين الى آخر يلق على جسر قاربه محدثا ايقاعات بميزانه . ولكن لم يكن هذا ما كنا ننتظره .

وأخيرا ، كان القارب الصغير يظهر ، وفى مقدمته شيخ كان يطلق صيحات مميزة يرفقها بطرقات موقعة من عصا خيزران ، وعند وصول القارب أسفل بيتنا ، كانت طرقات الشيخ تزداد حدة وهو يشير اليها بحركات خاصة .

وعند هذه الاشارة ، كنا – أنا وخالي – نشرع فى عملنا : وككل العائلات التى تقيم على ضفة النهر ، كنا نضع النقود فى سلة صغيرة نشدها الى خيط طويل ونجعلها تتدلى بحذر من النافذة المفتوحة ، ثم كنا ، ونحن منحنيان من النافذة ، ننظر الى الشيخ يعد نقوده بدقة ، ويعصر فى قطعة من قماش أبيض كرات من الأرض الداخلة كان يخرجها من برميل كبير . وفى هذه اللحظة ، كان خالى يشرع فى المساومة تماما مثل ربة بيت حريصة على الربح :

– يا جدي ، إنك لا تضع مقدارا كافيا من السكر . أضف شيئا آخر من فضلك !...

وأثناء الأكل ، كنا نجهد أنفسنا دائما في إيجاد موضوع للثرثرة ، حتى نطيل فترة الطعام . وسألته يوما :

– لماذا أرز هذا الكعك أسود يا خالي ؟

– لأنه داخن !

– كيف ؟ أیظل صالحا للأكل حينما يكون داخنا ؟

– ولم لا ؟ ألم تر أن جارنا يأكل جبن الصوجة داخنا ؟

وأصرخ في عناد : – لكن ذلك ليس حسنا ! انه يلذع الحنجرة !

وفى النهاية يشرح خالي الامر قائلا :

– هذا الارز ملون بعصير التوت ، لقد أكلت مرة حبات توت أهدانيها رفاق .. إنه ثمر شديد الحلاوة ، حتى أن الاسنان تستحيل سوداء بعد أكله .

واثر الإفطار ، كنا لا نملك الا أن ننظر الى الكعكتين الاخریین فهما للغداء ، ولم يكن من حقنا أكلهما .. حينئذ ، كنا نشرع في لعق السكر وحبات الأرز الملتصقة بأيدينا ، ثم نفجر ضاحكين ونحن ننظر الى بعضنا مرددين : ما أحلاه !

وكان خالي يقسم :

« حينما أصبح غنيا ، سأشتري كثيرا من هذا الكعك ، وأكلها مع فطائر وسمسم ، مثلما يفعل الأغنياء ! »

ولكن ، للأسف ، فقد تم إلحاقه – بسبب فقر العائلة – بمدرسة دينية تابعة لمنظمة خيرية ، وفي سنة 1949 ، تحولت هذه المدرسة الى الولايات المتحدة ، ومنذ ذلك الحين انقطعت بيننا الاخبار .

وعندما تم تطبيع العلاقات بين الصين والولايات المتحدة ، استطاع خالي ان ينتهز الفرصة للعودة الى الصين من أجل رؤيتنا .

لقد أصبح بحق رجلا غنيا بعد ثلاثين سنة .

سألته وأنا أشد على يديه بحرارة :

- إننا عازمون على استقبالك أحسن استقبال بمناسبة عودتك فماذا تريد أن تأكل ؟

- آه ! أنواع كثيرة من الاطعمة اللذيذة . مثلاً جبن الصووجة المقلي ، « بوربييه : Pourpiers » مغلي مع اللحم ، أرز لزخ محمر ... وكذلك كعد الأرز الأسود ! ...

وفكرت مندهشاً : « لقد أصبح صاحب مؤسسة كبرى ، فلماذا يرغب اذن فى تناول أكلات البسطاء من الناس ؟ » وسألته :

- كيف يمكن أن تظل راغباً فى أكل كل هذه الاشياء ؟

فأجاب بتأثر بالغ : « ولم لا ؟ إنه من الصعب عليك أن تفهم حياة صينيى ما وراء البحار ومشاعرهم . فهناك ، فى الولايات المتحدة ، يجب علينا أن نعمل بايقاعات عنيفة جداً مثل آلات . وفى منتصف النهار ، لا نتمكن الا من تناول لمجة فى المكتب ... حتى أنى أصبحت أشعر بضيق لا بوصف كلما رأيت شرائح اللحم البارد عديمة الطعم . وأفكر حينئذ : متى سأتمكن من أكل كعك الأرز فى بلدى مرة أخرى ؟ كعك سخن ، حلو ، معطر ... وأتذكر أيضاً ذلك البائع الشيخ الطيب والمحبوب ... كيف يمكن مقارنة لمجة بكعك مماثل ؟ وهكذا ، منذ سنوات وسنوات ، وأنا دائم التفكير فى بلدنا وفى كل هذه الاعوام التى لا تنسى ...

لقد عاد خالى الى الصين بحثاً عن الرقة والحنان ، ولكنه سافر دون أن يتمكن من أكل كعك الأرز الأسود لأن موسم جمع الأرز لم يكن قد حل بعد لسوء الحظ

وقبل الرحيل تنهد فى حسرة وندم :

- يا للخسارة !

كنت أعرف أنه كان حزينا لعلم تمكنه من تذوق هذه الكعكة مرة أخرى ... وكنت على يقين من أنه سيكون أكثر حزناً لو أنى قصصت عليه فى هذا السياق حكاية ما زالت تخجلني الى حد الآن .

ولكن كيف سيكون باستطاعتي أن أقص عليه هذه الحكاية ؟

منذ اثني عشر عاما ، كنت معلما فى مدرسة جبلية • كنت المعلم الوحيد لتسعة عشر تلميذا • وكانت الحياة صعبة جدا • فحتى الطعام - لكى لا أتحدث عن سواه - كان يسبب يوميا مشكلة •

فقد كان علي أن أذهب ، فى كل يوم ، بعد الدرس ، الى الجبل لأجمع الحطب صلبة تلاميذى من أجل طهو طعامنا • هؤلاء الريفيون الصغار كانوا بسطاء وجذابين ، وكانوا لا يريدون أن يقوم أستاذهم بأى عمل • وبما أنى لم أكن أريد البقاء مكتوف الايدى ، فقد كنت أشاركهم دائما فى عملهم •

وذات يوم ، سأل التلميذ « كسيياوتي » مشيرا الى كدس من الالواح المتعفنة - وكان يومها مكلفا باعداد الطعام للجميع - :

- لماذا تجمع هذا الحطب يا أستاذ ؟

- ماذا ؟ ألا يمكن أن يصلح وقودا لاعداد الطعام ؟

- لا ! انها أخشاب تابوت متعفنة • كم أنت غبي ! فلو أننا أعددنا الطعام بهذا الخشب لأصبح الأرز غير قابل للأكل بسبب الرائحة الكريهة !

ثم القى بكل الاخشاب التى جمعتها بعناء كبير • وانفجر التلاميذ ضحكا ، فاحمر وجهى من شدة الخجل •

ثم قلت فى نفسى حانقا : « أيها القروى الصغير الاحمق ، هل تجرؤ على شتم أستاذك ؟ » ولم يكن من حقى أن أزجره وأؤنبه فى ذلك الحين ، لكنى ظللت حاقدا عليه •

فى اليوم التالي ، وبينما كنا نبحث عن الحطب فى الجبل من جديد ، رأيتة منشغلا بجمع أوراق نوع من الشجر يشبه الدردار والورد فى آن • وكان يعمل باهتمام كبير وفى النهاية خلع جمازته ليأف فيها بعناية ما جمع من أوراق •

وبما أن قروىي هذه الجهة اعتادوا على جمع الاوراق لصنع عجينة لحم الخنزير ، فانى وبخته بشدة حينما كنا فى طريق العودة قائلا :

- أيها الاناني ! أتبحث عن الاوراق لنفسك عوض أن تجمع الحطب مثل الآخرين . ألا تفهم معنى العمل الجماعي ؟
ولكنه واصل سيره خلفي فى صمت .
وساعة الغداء ، قلت آمرا :

- الذين لم يعملوا ، لا حق لهم فى الأكل ! لا نريد كسالى بيننا !
فانصرف دون أن يأكل . وهكذا أحسست بالرضى ، لشعوري بأنني انتقمته منه .

فى المساء ، ألقيت بالاوراق لدى خروجي من المدرسة ، وسلمت جملة كسيياوتي الى أحد التلاميذ وطلبت منه أن يعيدها اليه .
تساءل هذا ضاحكا !

- إنه لمن المؤسف حقا يا أستاذ أن تلقي بهذه الاوراق ! فبواسطتها نستطيع صنع كعك الارز !
- ماذا ؟ أبهذا نستطيع صنع كعك الارز الأسود ؟ وأضفت بسرعة وأنا مندهش : ولكن ألا يصنع هذا الكعك بعصير التوت ؟
وانفجر التلاميذ ضحكا .

- لقد احتال عليك البائع ! فلو أننا صنعنا هذا الكعك بعصير التوت لارتفع ثمنه كثيرا ! ومن سيقدر على شرائه آنذاك ؟ لا ، ففي جهتنا ، تقوم كل عائلة بجمع هذه الاوراق لتبيعها فى المدينة .

- كم ثمن الرطل ؟

- خمسة عشر سنتيما .

- اذن فمن أجل بيعها أيضا ، جمع كسيياوتي هذه الاوراق ؟

- نعم ، ذلك جائز . فعائلته فقيرة جدا . لقد توفي أبوه ، وأمه مريضة، وعليه أن يعمل بمجرد انقضاء عيد « الكينغ مينغ Quing-ming » ، وإلا فكيف يمكنه تسديد معالم الدراسة ؟

وظهرت أمامي من جديد صورة كسيياوتي النحيل ، فسالت مرتابا :

— ولكن كيف يمكن حمل كل هذه الكيلوغرامات من الاوراق ؟
 — إن كل واحد منا يتوصل الى حمل حوالي مائة رطل ٠٠٠ وإلا فما الداعي
 لتكبد مشقة هذه المسافة الطويلة الى المدينة ؟

وانصرف التلاميذ ، وبقيت وحدي ثابتا فى مكاني أفكر .
 لقد أحسست الآن بالشفقة على كسبيياوتي وعلى نفسي أشفقت عليه
 بسبب حياته الشاقة وعلى نفسي بسبب جهلي . وغفرت له .
 وجاء من الغد ، ولما دخل غرفتي سلمني لفافة صغيرة فى احترام وقال :

— أستاذ . لقد تعرضت أُمي بعد ظهر الامس الى نكسة ، وبسبب ذلك
 لم أتمكن من المجيء ، ثم أني لم أجد أى شخص حتى يستأذنك فى السماح
 لي بالتغيب . فأرجوك المذرة .

فقلت وأنا مطاطي الرأس : لا تبتئس ، فلا أهمية لذلك ، وأشرت الى
 اللفافة الصغيرة سائلا :

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Saqril.com>

— ولكن ما هذا ؟

لم يجبني مباشرة وإنما قال :

— هل الاوراق التى جمعتها بالامس ما تزال هنا يا أستاذ ؟

— نعم إنها هنا .

— حسنا . سأساعدك بعد الدرس على عجنها ، ثم نقوم بنقعها فى الماء مع
 هذا الارز اللزج ، وهكذا تستطيع بعد غد أن تصنع الكعك .

رفضت بشدة ، وقلت مندهشا :

— لا . لا . خذ كل هذا الى بيتك ، فعائلتك ليست غنية ٠٠٠

لكنه واصل قائلا :

— لقد كانت أُمي ترغب فى دعوتك لتناول الطعام عندنا ، لانها تعتقد انه
 ليس بإمكانك اعداد طعام جيد كل يوم وانت وحيد هنا ، وبعيد عن عائلتك .
 وقد طلبت مني مبدئيا أن أحمل لك شيئا من الأرز اللزج حتى تصنع كعكا
 من الارز الاسود بواسطة الاوراق التى قمت بجمعها ٠٠٠ اننا شديداً الفقراء ،
 ولكن أرجوك ، لا تهزأ بهذه الاشياء البسيطة ٠٠٠

كنت شديد التأثر والاندھاش فى نفس الوقت :

لقد كان كل ما فعله بالامس من أجلى ، وما فعله اليوم كان من أجلى أيضا ،
أنا الاستاذ الذى ليست له اية تجربة عملية فى الحياة ...

ما أطيب فلاحينا ، وما أكرمهم ! لقد كانوا متفتحين لاحتواء صغارتى .

طبخت الارز فى قدر كبيرة ، ودعوت الجميع للاكل . وعلى طريقة الشيخ
بائع الكعك عصرت الارز فى قطعة من قماش أبيض ثم ناولت كسبياتى
الكعكة الاولى .

وغمرني احساس مر ، حامض وحاد وأنا آكل هذا الكعك الذى صنعته
بنفسي .

لقد توصلت فى النهاية الى فهم ما كنت أجعله طيلة ثلاثين عاما ، ولكن
حتى سيمكننى تملك بساطة الفلاحين وطيبتهم وتسامحهم ؟

وفى النهاية كتبت الى خالى رسالة ضمنيتها مشاعرى وأطلعتة فيها على
هذه الحكاية ، فرد بسرعة :

« هكذا هى الحياة ، فبعد العشر يكون اليسر ، ان رسالتك جعلتنى اكثر
تمسكا بقرارى : أن أعود الى الصين . الى البلد الذى ولدت فيه . فلماذا
أعيش حياة تائهة فى بلاد الغربية ، وأنا أنتمى الى بلد كهذا البلد وشعب كهذا
الشعب وكما يقال : فبرغم كل مسيرات المدينة الرائعة ، فانه ليس أفضل من
العودة الى العائلة فى أقرب وقت ممكن ... »

عندما يعود خالى ، سأتعهد بصنع كعكات بنفسي وأجعله يتذوقها ...
سأكون عند وعدي دون أدنى شك .

« الهذبه والعيفه »

قصة ضاع اسم كاتبها . فالرجاء منه افادتنا بذلك حتى ندرجها
فى العدد القادم .

- التحرير -

المأزق

« هيه يا أهل البيت !! أين أنتم !! »

على غير العادة رجع مبكرا ... عادة تعودها من زمن ليس بعيدا .
أتساءل من مدة عن الاسباب التي غيرته لهذا الحد ... لكنني أقف عاجزة عن تفسير الامر ووضع المبررات له .

تغيره لاحظته من مدة ليست قصيرة ... يدخل مكشرا ، راسما خطوط جبهته العريضة ! كان يدخل البيت ضاحكا ، تسبقه ابتساماته ، ويده تتكور على الكثير الذي يحمله من بقايا السوق .

لكن هذه التكشيرة الجديدة لا تفارق وجهه ، مفرداته تغيرت ، معاملته أصبحت كلها أوامر لا تنتهي .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

هل قصرت في خدمته يوما ؟ هل أحس مني نفورا برغم رائحة يده التي لم يجد الطب لها دواء بعد ؟ أو يحملها ذكرى لن تغيب من حياته على تلك الواقعة ؟!

أغلب الظن أن هذا الرجل قد ساءته هذه القعدة بعد أن فقد المقدرة على العمل ولم يعد لنا مصدر دخلنا .

متبرم على الدوام .. عندما يدخل يفتش عن أى شيء ليخلق مشكلة ... يلعلع صوته المتحشرج ذاك الذى كان فى يوم هادئا . ماذا دها هذا الرجل ؟!

اخسر نصف عمري وأعرف الاسباب التي تقف خلف هذا التغيير المفاجيء ... حتى نساء الحارة اخجل منهن ، وهن يتذاكرن ليلة الجمعة وأحاديثها الطويلة المتشعبة .

أكثر من واحدة من الجارات لاحظت انطوائي ومفادرتي الجلسة عندما يبدأ ذاك الحديث .

الى متى أظل صامتة ؟ هل أقول لهن ؟ ماذا أقول ؟ وكيف أبدا ؟ هل أصارحن أنه لم يضع الماء على جسده منذ أكثر من عام ؟!

من يصدقني إن تكلمت ؟!

كان قديما يجعل الاوساخ مبررا لحمامه ، أما الآن ؟! لا أدري ماذا حل بهذا الرجل ! ومن أين جاءت هذه التكشيرة وهذا العناد وهذه المشاكسة التي يفتعلها من لا شيء !

كان يحدثني عن كل شيء في جلساته مع الرجال العاطلين تحت ظلال الجدران في مركز توزيع المؤن ، يلعبون السيجة ، وكان يقص علي نتفا من أخبار الغائبين .

وهو الآن لم يعد يفوه بشيء من ذلك ، كل ما يتلفظ به أوامر ونواه حازمة وكعادتني - لانني أعرفه عصبي المزاج ويكره ان تغالطه امرأة - ألوذ بصمت أخرس .

الا يكون الرجل لاحظ شيئا خلال قعدته ؟!

كثيرا ما كان يذكرني برائحة فمي ، لكن هذا السبب لا يمكن أن يكون الأساس لكل هذا التغيير .

كل النساء يؤكدن حقيقة أن الفقر هو الباعث على ضيق الخلق وأن الفقر قد يضع في بال الرجل أشياء كثيرة !

هل تكون زيارات بعض أصحابه لمصرفي السبب؟ لكن من أين تأتيه النقود لذلك ؟!

- : « أين أنت يا ملعونة الأبوين ؟ لماذا لا تردين ؟! قد حل الزمان لا ترد فيه النساء على الرجال ... آه ... آه ... »

ومن الغرفة الوحيدة جاء صوته مغلفا برائحة البصل .

« هاتي نصف دينار . لا أريد تبريرا كالعادة . تدبري الامر ، الراديو معطل منذ أيام ثلاثة ولم أسمع خبرا ... »

هو يعرف أنه ينفخ في قرية مثقوبة بهذا الطلب لكنه - وقد أدمن على سماع نشرات الاخبار - يسلي نفسه ويتلذذ لمذاق بقايا أمل ، يعاود الطلب رغم أنه مقتنع أن جميع اذاعات العالم متفقة بينها على ما تقول .

« خاف ربك يا رجل ! نصف دينار وأنت تعلم البئر وغطاءها من أين آتيك به ؟ »

أليس أولادك أولى به - إن وجد - من هذا الكلام الذي يصدع رؤوسنا ويقبض أرواحنا صباح مساء ؟! كل الرجال يعملون ، وأنت لا هم لك غير حرق الهيشي والانصات الى الاخبار . آه يا ربي لو أني بلا زواج لتصدق الناس علي . وجوده كعدمه بل إن وجوده يحول دون أن تصل اليها صدقات المحسنين . مئة مرة . رجوته أن يجلس في ظل الجدار يبيع الترمس الذي أخذت على مسؤوليتي تجهيزه له لكنه ...

- قلت لك هاتي نصف دينار ،

- انتظر يا رجل حتى يفرجها الله ، والله لا أملك قرشا واحدا ،

- سأخذ المبلغ من الحاج رباح واعلمي حسابك منذ الآن ها أنا خارج ،

★ ★ ★

حلقات السبيجة تزدحم كهادتها بالرواد ... تنحني قبل أن يقترب ... افردوا له مكانا بينهم ... سلقه احدهم بنظرة ذات معنى قائلا :

- تبدو على غير العادة . يا رجل ماذا حدث ؟!

منذ مدة وأنت لا تشاركنا اللعب ، وتقضي وقتك ساهما ، نافخا أنفاسك بغيظ ولم نعد نسمع منك تعليقا على الاخبار ، هل حدث جديد ؟! أم نراك سلمت بالامر مثلنا واقتنعت بالمثل « حط رأسك بين الرؤوس » .

ها قد أتى عليك حين من الدهر ، اقتنعت فيه ... كنت تضحك علينا . وتسفه عقولنا ... زمن ... الايام كفيلة بكل شيء . من كان يصدق هذا التحول يا رجال ؟ نفخ بغيظ .. سوى التراب بقدمه وجلس .

- اتركنا من هذا الحديث بالله عليك ، ثم أنت بالذات ماذا يهمك من الاخبار غير أسعار الاسهم ؟ لو كان لك ابن في سجن أو معتقل لقدرت الحال وأرحتني من هذه التساؤلات .

- أوكلها لله يارجل ، الانتخابات على الابواب وستهون إن شاء الله .

لم يعقب نكت التراب بعصبية يعود في يده مرات كثيرة متتالية وارسل
زفرة طويلة ممزوجة بالحسرة .

★ ★ ★

- خذ هذا الدينار كاملا ولا تسألني بعدها !!
- دينار كامل ؟ غير معقول يا امرأة ! من أين أتيت به ... قولي :
- يسرها ربك !
- قولي بالله .
- قلت لك يسرها ربك ، أبو مصطفى من زمن يطلب مني أن أغربل
لهم قمحا ...

صعق ، كمن مسه سلك مكهرب ، زفر بحرقة قاتلة كثور ...
انتابته كوابيس متلاحقة هومت شياطينها فوق رأسه .
عاد الى الورا ... تذكر كل اللحظات التي افتقدتها فيها ليلا ... مرت
عليه الثواني ثقبة خائقة .
تذكر طرقات يد أبي مصطفى المتأخرة على صفيح بوابتهم ، تنهد بغضب
كاسح مدمر . ونذكرها عندما عادت اليه ليلتها ونظراتها المتلمعة عندما دخلت
مرتبكة نجيبة متلعشمة عندما حاصرها بالاسئلة ، إنها كانت تقضي حاجتها ،
ولحظتها ابتسمهم في يأس قاتل :
- لأجل ذلك لا تغربلين الا ليلا يا حليلة ؟ . أضاف بمكر : طيب وهذه
الليلة ؟

ابتسمت زغردت عيناها بفرح مفاجيء ...
- الليلة كغيرها ذهبت أغربل ما تبقى ، تأخرت لانتهى من جميع القمح .
مز رأسه بامتعاض ظاهر .
- أى قولي هيك من زمان يا حرمه ، خليتني اقلق وابعد في ظني البعيد .
آخ ... آ ... ادخلي ... ادخلي .
وتبعها بأوصال مرتجفة وأعصاب نائرة وقلب حاقد .

سمير احمد البيريف
الاردن / صويلح

عطاء حتى الموت

وأوصينا الانسان بوالديه احسانا
- قرآن كريم -

ما ان فرغ من طعامه وتهيأ لتناول كأس من الشاي الاسود ، شرابه المفضل
بعد الغداء حتى بادرت زوجته قائلة ، وقد بدا عليها العبوس والتجهم :

- الى ماذا انتهيت يا اسماعيل ؟
- بشأن ماذا ؟
- لا أحسبك نسيت بهذه السرعة .. أعنى موضوع أمك طبعاً ..
- لا شىء بعد ..
- أعلم اننى ما عدت احتمل اكثر من هذا يجب أن تحسم الامر وبسرعة ..
- زفر اسماعيل فى حرقه وألم وقال دون أن يفارقه اتزانة :
- ألا تريحيننى وتريحين نفسك ، وترحمين عجوزا مريضة لا حول لها ولا قوة ..

قالت شيراز فى انفعال :

- أهذا هو ردك على سؤالى ؟

ويجيبها اسماعيل فى لطف وتودد :

- ضعى نفسك مكانى واعتبرى الموضوع يتعلق بأمك أنت فماذا سيكون موقفك ؟

وتصيح شيراز فى احتجاج :

- لا تحاول تغيير مجرى الحديث . وأعلم بأنني لا أسمح لك بإقحام أمي في موضوع كهذا .

- أرايت انك ترفضين حتى مجرد الإشارة الى أمك في مثل هذا الامر ونو على سبيل المقارنة لا غير ، وفي الآن نفسه تطلبين مني أن أمضي الى ما هو أبعد من ذلك بكثير مع والدتي .

- لا أعتقد أننا بصدد المقارنة بين أمي وأمك . ثم أن هذا ليس موضوع حديثنا على ما أظن .

ويخيم الصمت لحظة ثم يعود اسماعيل الى القول وقد بدا من حديثه أنه على وشك الاستسلام لرغبة امراته :

- لنفترض انني اقتنعت بوجهة نظرك فما هو المطلوب مني ؟ .

- الامر يعود اليك وحدك .

- اني أطلب منك أن تساعدني في البحث عن حل .

- لماذا لا تأخذها لتقيم عند شقيقتك عائدة ؟

- عائدة أسرتها كبيرة ، وبيتها صغير لا يكاد يتسع لها ولا بناتها . ثم ان زوجها - وهذا هو المهم - صعب الخلق ، مشاغب ، بذىء اللسان . ولا أظنه سيوافق على اقامتها معهم .

- ليس أمامك اذن الا أن تودعها مأوى العجزة .

ويصرخ اسماعيل في جزع :

- ماذا تقولين يا شيراز . آخذ أمي الى الملجأ بيدي ؟

هذا غير ممكن . . . مستحيل ، مستحيل . . . ؟

- وأنا غير مستعدة بأن أكون خادمة وممرضة لها .

- ومن طلب منك ذلك . اني أقوم على خدمتها بنفسى منذ أن أقعدها المرض .

- الملجأ أفضل لها ولنا . . حياتها هناك ستكون أكثر راحة . وستخلص مما تعانيه من وحدة وفراغ هنا بوجودها بين نسوة في مثل سنها تبادلهن

ويبادلنها الحديث والذكريات ، هذا بالإضافة الى أنها ستجد من يقوم على خدمتها والسهر على راحتها بصورة دائمة منتظمة .

تنهد اسماعيل من قلب يتلظى وقال سائلا شيراز :

— هل فكرت فيما سيكون عليه رد فعلها من هذا الامر ؟ وكيف سيكون موقفها مني ؟ وماذا سيقول الناس عنك وعني ؟؟

— لا شك أن الامر سيكون مفاجئا لها ولن تتقبله ببساطة ويسر . لكنني واثقة بأنها ستقدر الموقف وتتفهم الاسباب فى النهاية . أما الناس فلو شغلنا أنفسنا بكل ما يقولون فلن يستقيم لنا عيش بينهم يوما واحدا .

— إنك تدفعينني دفعا لان أصبح ابنا عاقا لا خير فيه .

لقد ضحت بشبابها وأجمل سنوات عمرها من أجلنا أنا وعائلة . مات أبى وهى فى عز الشباب . وقررت ألا تتزوج من بعده لتفرغ لنا . شقيت كثيرا فى سبيل تربيتنا وتعليمنا وبخاصة أنا . . . كانت تعمل فى البيوت بالنهار . وتقضي معظم الليل منكبة على آلة الخياطة . حرمت على نفسها متع الدنيا وملذاتها لتهيئ لنا حياة ناعمة مريحة قدر الامكان . وحرصت على أن أوصل دراستي بالمرحلة الجامعية . كأن حلمها وأملها الوحيد أن تجعل مني رجلا ناجحا مرموقا .

لقد وهبتنا كل أيام عمرها بلا ثمن . أبعد كل هذا تطلبين مني أن أتفكر لها وأقلب لها ظهر المجن ، وقد وهن العظم منها ، وبلغت من الكبر عتيا . وشارفت رحلتها فى هذه الحياة على نهايتها ؟

لقد احتملتني العمر كله ، فكيف أضيق بها وهى فى أيامها الاخيرة ؟

صاحت شيراز فى غضب صارخ :

— يبدو ألا جدوى من مواصلة الحديث معك فى هذا الامر . . . ولعله من المستحسن أن أذهب الى بيت أبى وأتركك تفكر بحرية وهدوء ، حتى اذا وصلت الى نتيجة فأخبرنى بذلك .

قال اسماعيل فى انهيار :

- تعقلي يا شيراز . وأبعدي عن رأسك هذه الافكار وامنحيني بعض الوقت لا تدبر الامر . . وثقى يا عزيزتى بأنى سأبذل قصارى جهدى لتفادى غضبك وكسب مرضاتك . وعن قريب سأضع حدا لهذه المشكلة ، أعدك بذلك .

قالت شيراز بعد أن هدأت سورة غضبها وقد شعرت بأنها بصدد كسب الجولة :

- حسنا سأمهلك أسبوعا وسأرى الى ماذا سينتهى قرارك .

ولما خلا اسماعيل بنفسه مضى يستعيد فى خياله صور وأحداث مسلسل حياته من البداية . . وفاة والده . . شقاء أمه . . طفولته . . شبابه . . تعليمه . . شيراز . . كان ذلك سنة التخرج . . من أول نظره تعلق قلبه بها وشغف بها حبا . وفى أول لقاء جمعهما صارحها بحبه وبرغبته فى الزواج منها . وحين عرف أمه بقصته معها وبعرمه على الزواج منها أبدت تحفظها نظرا للتفاوت الطبقي بينهما . ومع ذلك تركت له حرية الاختيار ولم تحاول فرض رأيها عليه .

كان يحلم دائما بمصاهرة أسرة من الطبقة الراقية ، ويرى فى ذلك شرفا وكسبا له .

لكن رأيه هذا لم يستمر طويلا بعد الزواج اذ ما لبث أن شعر بالخطا العظيم الذى وقع فيه لما اتضح له الفارق الكبير الذى يباعد بينه وبين شيراز فى التفكير والطباع والسلوك ، وما يطفى على طبيعتها من زهو وكبرياء وترفع وشموخ . ولاحظ أنها ما تنفك تذكره بين الحين والحين وبمناسبة وبغير مناسبة بنبل وشرف أسرتها والطبقة التى تنتسب اليها . والاسوأ من ذلك كله تحديدها لمشاعره مرة بعد أخرى بتعريضها صراحة بأمه وابداء امتعاضها وتضاييقها من لهجتها الريفية وزيتها التقليدى . ورغم أن ذلك كان يؤذيه ويؤلمه لكنه لم يؤثر فى حبه لها وتعلقه بها .

كان يتجاذبه حب أمه وواجب البر بها وحب زوجته والسرغبة فى كسب مودتها . فهو لا يريد أن يتنكر للانسانة التى أدارت ظهرها لمباهج الحياة من أجله كما يحرص على استمرار الود والتفاهم بينه وبين زوجته . وذهب الى شقيقته عائدة وطلب منها أن تستضيف الوالدة لديها بعض الوقت الى أن يقدر الله أمرا كان مفعولا بعد أن شرح لها الظروف والاسباب .

ودار بينهما نقاش ساخن اسمعته خلاله ما لا يحب ويرضى . وكانت تلك هى المرة الاولى التى تخاطبه فيها على ذلك النحو فهى أصغر منه ولم تتعود رفع صوتها فى وجهه . ووعدته مع ذلك ببحث الامر مع زوجها الذى رفض ايواء العجوز ببيته .

وأسقط فى يد اسماعيل وأصابه غم شديد . غدا يحل الاجل المضروب وهو لم يصل بعد الى نتيجة .

وأحاط شيراز علما بفشل محاولته مع شقيقته وزوجها فثارت فى وجهه وحذرتة بأنها ستترك له البيت اذا هو لم ينجز وعده فى الموعد المتفق عليه . فطمأنها مؤكدا لها بأن بأن شمس الغد لن تغرب الا وقد انتهى كل شئ وعاد ذلك السؤال القديم الذى لم يجد له جوابا بعد يلج عليه من جديد مضاعفا من حيرته وعذابه : ترى ما هو السر الكامن وراء موقف شيراز العدائى من أمه التى ما أساءت اليها يوما . بل على العكس ما عرفها الا حريصة على خطب ودها وكسب صداقتها . والغريب أن يكون هذا هو حالها مع زوج ابنتها عائدة كذلك .

فى المساء جلس الى والدته ليفضي اليها بما عزم عليه فى شأنها . كان يتمزق ويحترق فى داخله وهو يحاول ذلك . ومضى يلف ويدور بأسلوب فيه غموض واضطراب شارحا لها الظروف والدوافع التى أملت ذلك الموقف ملتصبا بالاعذار والمبررات له ولزوجته . وبعد تردد طويل تمكن من جمع أطراف شجاعته وأفضى اليها بالنبا العظيم .

كانت تستمع اليه فى صمت وجمود . عيناها الغائمتان قد استقرتا على سقف الغرفة ، وسحابة من الحزن الدفين تعلو وجهها الاصفر المعروق .

واعتذر اليها ورجاها أن تصفح له وسألها وهو يتهيا للانصراف ان كان لديها ما تقوله أو تطلبه منه . ونظرت اليه مليا ولم تقل شيئا . وانحنى عليها وقبل جبينها ، ولمح في عينيها دمعة تترقرق ، وغادر الغرفة وقد اعتراه احساس بالحقارة والندم .

وقضى الليل ساهرا يفكر . وما إن أشرق نور الصباح حتى قام فاغتسل وهيا نفسه وذهب لرؤية أمه وقضاء حاجاتها . ولم يلبث أن خرج من عندها وهو يصرخ في حرقه والتياغ :
- لقد قتلتها ... قتلتها .

وعلى صدى صياحه أتت شيراز مسرعة وسألته وقد بدا عليها الانزعاج :
- ماذا هناك ... ماذا حدث ...؟

قال وقد أجهش بالبكاء كالطفل الصغير :
- لقد ماتت أمي يا شيراز ... يرحمها الله ، كانت دائما معطاء كالارض بلا حدود وحتى الموت .

قالت شيراز في تأثر حقيقي :
- لقد أكرمها الله .

ردد اسماعيل في حزن وفي شبه همس :
- واخزاني !!!

محمد الخموسي الحناشي

فابس في 8/3/89

نتيلة تباينية

أرانب وكلاب

عندما غرست السكين فى ظهرك دفنت معه حقد السنين ومرارة الأعوام ..
أنا سيد البيت الآن ..

هل كنت تشعر بما أشعر به اللحظة ؟
هل السيادة أن تقف على أنقاض غيرك ؟
واسمع أنه .. أسمعها بعيدة .. وكأنى بك تستنجد ..
ظهري .. ظهري يؤلمنى .. والتفت إليك بعصبية ..
- اصبر .. اصبر مقدار ما صبرت ..
وانكمشيت داخل قوقعة نفسى ..
سأغلق النوافذ الآن .. أغلق الباب الكبير ..
- ماذا ؟ جرس الهاتف يرن .. ؟؟
لينبح لو يستطيع ! ..

نحن الآن فى الصباح .. وأريد أن أشرب قهوتى فى مكتبك .. ذلك الذى
لم أدخله إلا ضائعا تائها وراء طلباتك .. المحفظة .. المعطف .. السوق
وحاجات أخرى كثيرة .. أقضيها لك .. كنت أحزن حين أسمع الحياة تمور
وأنت بين ضيوفك وأقاربك ورجال الاعمال مثلك .. فى المساء بعد عودتك
من العمل أقف وراء الباب .. أنكمش خلفه وأسمع ضحكاتكم المجلجلة ،
أسمع أصواتكم الصاخبة وكؤوسكم المقروعة ببغضها ونكتكم البذيئة أحيانا ..
كنتم تمارسون حقوقكم الانسانية فمنكم الهازل والثائر والشاتم والمعربد ..
هذه الحقوق البسيطة محرمة علي .

أطل خلف الباب منكمشا .. أقف بأدب حتى لا أجرح شعورك أمام ضيوفك
ألتصق بالجدار أكتم نفسي وداخلي رغبة ساحقة فى الانفجار، أريد أن أضحك
أن أقهقه .. أن أفجر رثتى .. وبعسر شديد أوفق فى كتم أنفاسى .

أنا مطمئن الآن .. مطمئن ..

القهوة أمامى .. ومكتبك الفسيح يحتوينى .. فتحت ملفاتك .. لم أفهم
شيئا .. ولا أريد أن أفهم شيئا .. الملفات اختصاصك .. لا تهمنى .. حتى
مالك الذى يرقد خزنتك « لا يهمنى » حتى السجن أيضا .. أشعر فقط أنني
قمت بعمل جريء وكبير .

سيكشفوننى أيضا .. لا يهم .. كل شيء معرض للانكشاف ، وكل شيء
نهب الحقيقة سوف يقفون على الحقيقة .. وأنا سوف أقول الحقيقة ...

لو كنت مكانى .. ماذا كنت فعلت ؟؟

هل كنت صبرت وسكتت ؟؟

اللحظة يهزني خوف مقيت .. يجعلني أرتجف ارتجافا مفرعا .

— ماذا .. ماذا فعلت يا منصور ماذا ماذا ؟؟

واستسلم لثقل اللحظة .. أدور فى فلكها كانت هى السبب لأنها لم تكن
فى مثل شراستك .

كانت أيامى قبل أن أفكر بها متشابها كاسنان المشط .. أخدمك .. وأتعب
وراءك وأختبئ فى حجرى كالارنب .. دوما خائفا ذليلا منكمشا صغيرا
وهبت على حياتى الراكدة كالرياح العاتية فأخرجتنى من مخبئ .. وسطعنى
النور ضربنى على عيني .. وتمكن منى ذلك الشيء الجميل الذى يفعل بالنفوس
فعل الخبل والجنون مجنون أنا !!

لم تكن مثلك .. كانت ترفض أن أفتح لها باب السيارة .. ترفض أن أقف
وراءها . قالت لى ذات مرة :

— ما كل هذا يا منصور ؟؟ أنا من عائلة كاسبة وكادحة .. وأحب الكادحين

.. أوأوف .. الهاتف العنيد .. وتتحرك يدي نحوه ..

ولكن لا .. لم أكمل حكايتي ..

قبل أن أدخل بيتك وأعمل معك كنت أعمل فى محل لبيع البنزين ، وكنت صغيرا ، كنت أراك .. وكنت تبهرنى لذلك ترانى دوما أسارع لتلبية حاجتك وفى نفس الوقت أنظف سيارتك ومرت الايام وأغلق المحل ووجدتنى فى الشارع بلا مأوى ولا مال ..

وذاث يوم اعترضت سبيلك .. وشكوت إليك حالى .. والحق يقال لم تتركنى .. أخذتنى وكنت وديعا .. أريد أن أضحك ولكن لا أستطيع .. لم تكن وديعا أبدا .. وداعتك كانت خدعة .. انقلبت بعدها الى كلب شرس .. يعضنى ساعة يشاء .. وما حدث اليوم كان يجب أن يحدث من زمان .

لما مات فى نفسى الخوف قتلتك ، حررت منك الارنب الذليل الذى قضى فى هذا البيت سنوات ، وهو يلهث ولا يأمن على حياته منك ..
ذلك الارنب تدرب على الجرى وراءك .. تخلف .. وانعكس خط الجرى وسبقته .. سبقته الى حتفك ..

الجرس .. جرس الهاتف يرن ..

يلح .. ان أرفع المقبض .. قبل أن اكمل حكايتي ..

كنت فظا غليظا شرسا مناكدا ومتقلبا أيضا .. وأحسست بانعدام التوازن معك .

وتحولت حياتى الى جحيم وأعمالى -وان لم تكن متعبة- الى شقاء وأنت تمارس سلطتك على .. وتضربنى .. فى السنوات الاولى كنت أفر منك الى زوجتك .. وبعدها أصبحت أشعر بالخجل وقد تقدمت بى السن كلما احتميت بها ، كلما وقفت أمام المرأة أحلق ذقنى . كلما عكست لى المرأة أيضا وجهى المتدفق شبابا وحيوية وأقارن شبابى بشبابها .. شبابنا بشيخوختك .

ويصرخ حقدى داخلى .. معلنا تمرده علي .. عليك ..

ذات مرة وأنت تضربنى ، فررت الى الحديقة ، كرهت أن ترانى تحت سطوة
ضرباتك وغضبك .. وعندما انتهيت منى .. وانسللت الى بيتى مقهورا ..
ومرة واحدة رأيته تقف بجانبى .. شعرت بجفاف فى حلقى وانتفضت ..
قلت لها باستحياء ..

- ماذا تريد سيدتى ؟ ؟

قالت لى فى حنو :

- تألمت ؟؟

- تعودت ..

وغرقنا فى الصمت .. والتقت نظراتنا .. تشابكت .. تصارعت ..
اقتتل .. اقتتل حتى الموت .. ماتت فى أعماق ذواتنا دون أن نملك الجرأة
على شيء .. كنا نرتعش كالارانب وكلاب الصيد تطاردنا .. كنا نعرف أنك فى
الطابق السفلى تنهياً للخروج .. واندفعت الى الخارج مخذولا معوقا :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- هل من خدمة سيدتى ؟ ..

يا للجرس اللعين ! ..

من يكون ؟؟ هى .. لالا .. هى لا تريدك .. لا تريدك ..

كم اشتقت اليها .. أيام وأيام دون ان أراها .. منذ أن تركت البيت ..

بذور الشك بدأت تنتابك .. الشك يا كلب ! .. كنت تبدو كسلحفاة مقلوبة
على ظهرها وأنت تصارع نفسك وتنظر إلينا من تحت جفنيك الغليظتين فى
ريبة وخبث ..

لم أذنب فى حقك يا سيدى .. لقد حاكت لى الظروف قصة غامضة .. كنت
أنت طرفا فيها بغلظتك وقسوتك واستجبت لوجدانى الذى تشكل بمعزل عن
إرادتى فى غفلة منى ..

كنت أرقبها من بعيد وأتهيب الاقتراب منها ، كان الخوف يشل خيالى
يفقدنى حتى نعمة الحلم منبوزا فى النهار مشتنا باردا وضائعا فى الليل ،

مكتف الحزن .. ولا احتفل بالايام التى تمر وأنت تعذبني ، سلوتى الوحيدة
أن أخدمها .

ونظراتها تتعقبني والشك يفريك .. تحول جسمي الى حجر وضاق قفص
صدرى على رثتي ..

ولم يرحمك شكك .. ولم تتركني نظراتها المندفنة تحت سواد عينيها ..
وبدأت العلاقة بينكما تهتز .. ورأيتها تأكل نفسها .. كنت أفهمها وأعرفك .

ذات يوم وأنا أتأرجح بحمولتي . «قفة خضار» وصندوق فاكهة .. وأشياء
أخرى .. سارعت الى وأخذت منى القفة .. صرخت فيها :
- اتركه .. هذا عمله ..

ابتسمت ابتسامة صفراء وركبها عنادها وأخذت بعض حمولتي ..
وتحرك فمك بصريير مخيف .. وأشتيمت رائحة كريهة فى الارحاء ..
انزويت بعدها فى بيتي حزينا وخائفا .. أذكر أيضا أنني كنت أرتجف من
البرد والقر ومن صدمات النار التى تضرب أسناني ببعضها ولاح لى المستقبل
مظلمًا ومغتمًا ولم أستطع النوم .

مع خيوط الفجر الاولى فتحت النافذة الصغيرة .. دلّيت رأسى أبحت عن
الهواء والنسمات ترطب وجهى وصدرى .. لمحت شبحها اختفيت انكمشت ..
أغلقت النافذة .. أحكمت رتاج الباب .. كنت ألّهت ، ألّهت رهبة ورغبة ..

وسمعت طرقات خفيفة على الباب .. وصرخت رغبتى ..
- جاءت .. جاءت .. جاءت ..

وارتمت يدي تحاول رفع المزلاج .. ومرة واحدة تذكرت لكلماتك .. فاذا
بى أنثني .. وأسند ظهري الى الباب ..

- لا .. لا .. لا لن يكون ذلك .. لن يكون .. وتصيب جسمى عرقا ... وظللت
كذلك .. وعندما تشجعت وفتحت الباب رأيتها تبعد وفى يدها حقيبة سفر ..

وضربت على رأسي ..

إذن جاءت لتوديعي ..

وبقينا وحدنا في البيت وازددت رعونة وشراسة .. وصبرت عليك .. لقد كنت أحلم بعودتها .. وانقلبت حالة الحلم عندي الى بلاهة مجسدة كمدا وشوقا واندحارا ..

يا جرس الهاتف الارعن هو الآخر !!

وفي هذا الصباح .. جهزت لك فطورك: البيض المسلوق الجبن الحليب والخبز بعد أن شبعنت وتجشأت .. طلبت مني أن أحضر لك الهاتف وضعته أمامك على طاولة الافطار ، ووقفت أنتظر أوامرك .. وسمعتك وأنت تكلم محاميك ولعله كان يخالفك رأيك .. ذلك ما فهمته من ردك عليه ..

- يا سيدى .. يا سيدى الفاضل .. أريد أن أسوى وضعيتي معها فى أقرب وقت ممكن ، هذا الصنف من النساء لا يثمر فيه شيء .. سوف تعود إلى الزقاق الذى أخذتها منه ..
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وجن جنونى .. وتفجر حقد السنين الماضية .. واختطفت سكين الخبز من أمامك وبكل قوتي .. زرعت في ظهرك .. ونفرت دماؤك سوداء كحقدى ..

أخيرا .. أخير أيها الكلب ! ..

أخيرا صححت الخطأ .. الخطأ فى ترتيبية الزمن ..

جرس الهاتف .. يرن يلح .. ماذا بقى ؟؟

انتهت حكايتي .. سوف أرفع السماعة وأقول لمن يطلبك وبكل بساطة .. قتلتك !!

نتيلة التباينة

الحبل السرى

اليوم فقط ! - ومسلك العادة عند سور الجبانة يستقبل خطواتي الكسلى -
عدلت عن قراءة «سورة الحمد» سرا ... ترحما على روحك ... بصورتك
تعانق الحاطر ... تخدره بذلك الحنين المشوب بحزن مبهم ...

اليوم فقط أدركت أن الحنين لم يكن اليك ... ولا لأحضانك التى
تضمخها قلادة العنبر وجدائلك المخضبة حناء وقد استحال الشيب فى
رأسك الى أهذاب ذرة ...

اليوم فقط اتضحتم معالم الحزن المبهم ، أنا غير حزينه من أجلك يا جده! ...
فقد رشفت كأسك وتلذذت مذاقها حتى نفذ رحيقها ولم ترتجف يداك ...
ولم تنسكب أية قطرة منها هباء! ... لم يعثر كرجل من أن تنكسر الكأس
وما زال فى جوفها رحيق ...

ما حنينى لسواى ... لتلك التى لا أجدها منى ... لذاتى التى لا أراك
تطلين بزواية من زواياها ...

وما حزني على سواي ... حزينه لان العطونه فاحت من كأسى ... تتبخر
من جوفها فتهيج فى القرف والغثيان ...

أمس ، حينما عانقت بنظري وجه طفلي رأيت فيها شعرك وأنفك ...
تحسست تحت وسادتها أشياءك الغريبة ... ظلت بالنسبة لى غريبة ...
رغم معاشيتي لها كل السنين الغادية ... لم أغير منها شيئا ... لم أتلغ
منها قطعة ... فقط غيرت أمي الكيس ... كانت شفتاها تتمتمان وهى
تخيط الكيس الابيض الصغير وأناملها تعالج قطعة القماش فى لطف بالغ
وحذر يبعثان على الدهشة ... غدت ملامحها موسومة بتهيب وخشوع ...
وظلت على تلك الحال حتى وهى تضع الكيس الصغير تحت وسادة الوليدة ...

حينما انحنيت لأقبل ابنتي ... برز الكيس ... تعظم رأيته يشبه كيس
الحبوب ... كاد يهوي على طفلي .

هو ذا كيسك ...!!... بكل أشياءك الغريبة ... خذيه خذي عني
أشياءك ...!!

قبل ذلك الامس ...

تخطيت عتبة العرس بعد أن جاءني بنات الجن بمفتاح الهناء حتى يمكن
لعريسي أن يفتح الباب السرى وأن يمارس رجولته ... كنت قبل ذلك ،
أتعري للبحر ... تداعب أمواجه جسدي المشبوب ... وأتمرغ عارية في
الرمال ... أذكرني كنت أعشق المكوث كذلك حتى أشهد طلوع الفجر ...
وحتى يشهدني وكثيرا ما يتسلل النعاس الى جفني فأقول : « لم لا أنام
هنا ... أى أمر أخشاه فجسدي محروس ... والشاطئ المهجور لا يبعث
فى صدرى أدنى ارتجافة قلق ؟ ...! جسدي محروس !! وأمد يدا مطمئنة
اتحسس أعلى ركبتى الوشحات السبع وقد أخذت عن البحر لون حموله
وأمواجه ... »
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

هنا طلاس الملاقاة السرية ... تغيب مفتاح الحكمة فى عطفات اللغز ...
وتدسه عند بنات الجن يحرسنه فى صندوق مغلق يقبع فى قاع بحر لا ينزل
عبابه غواص ولا تمخر خضمه مراكب ...

لقد حرمتنى يا جدة من خشية العذارى وقلقهن ...

★ ★ ★

انفض عن خاطري ذكرى العرش ...

وحدك ... الملكة ... تتربعين عليه .. والجميع من حولك حاشية ..
مطيعون يشدهم اليك الولاء ... الولاء لما ترين أنت ...

أمرى تتغدى الصمت ... أبى يدخن لفافات صمت لا تحترق ذؤاباتها ولا
تنثال رمادا ...

العمات يلتحفن صمتا ... يتبرقعن صمتا ... أما نحن ... فالصبا
يشفع لنا ... ننعم بالتهام الحلوى الذاتية وهى تقطر سكرًا وعطرا الورد
ترصعها حبيبات الجلجلان . نغنمها برضا منك من زادك اللذيد ... ثم
نسكّر ... ونسكّر بحكايا الصياد وبناته السبع ، والتفاح الذى يرد
الروح ، وبنات الجن وعلى ابن السلطان ...

.....

فى عقر الحاطر ما تزال رسوم تلك الحكايا قائمة ... فى عقر الحاطر ما
زالت تتردد أصداء أهازيج أيام حبات الفول المقلّي ...

خذيها عني ... مدي يدك وخذي عني كل تلك الحكايا والاهازيج ورائحة
الفول وطعم الحلوى الذائبة خذي كيسك بأشيائه الغريبة ومفاتيحك
والوشمات السبع ...

وارحلي من شعاب الدماغ ... وأغوار النفس ...

حتى أتم ما لم تصنعه القابلة يوم تلقتني من رحم أمي : قطع الجبل
السري !

مسعودة أبو بكر

I سبتمبر 89

الزمن ومدلولاته الفنية والحضارية في أقاصيص أبي بكر العيادي

الزمن فضاء حدثي يتشكل عبر النصوص القصصية وجوها تعبيريا تتماثل في أنماط سردية تتميز عن بعضها البعض .

والزمن في أدبنا العربي مفهوم حضاري يتبدى في حركة أعلى ويتردد بين التدنى والنزوع الى استفاقة حقيقية تحول الفراغ الى خصوبة والجماد الى حركة ... وليس أبو بكر العيادي الوحيد من بين قصاصي السبعينات والثمانينات التونسيين الذي تفتن الى ثنائية الوظيفة الزمنية ، فجعل الكتابات القصصية تفصح عن معنى هذه الثنائية وتسعى الى تكريسها فنيا وفكريا . ولكن أقاصيص العيادي تتفرد عن غيرها بميسم خاص سنحاول إبانته في هذا المجال ..

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ويطالعك العنوان الكبير « دهاليز الزمن الممتد » (I) ، وهي عنوان احدي الاقاصيص .. ثم حين تفرغ من قراءة مجمل النصوص يتكشف لك الزمن بابا كبيرا تنفذ منه الى مباني النصوص ومعانيها ، فتجول في فضاءاتها الداخلية وتنوع الالوان والصور ، ولكن ثابتا أوحده يجعلك لا تضيع في أرجائها .. هو ذاك الزمن القليل يتخمر في ذاكرة المبدع ويطفو على سطح الكلمة يمازجه الحلم ، ويتفاقم توتره فيكتنن النقيض نقيا ويبقى الوجه الآخر خفيا ينتظر الميلاد ..

ويتكرر ذكر « الزمن » في عناوين بعض الاقاصيص : « الزمن الصديء » و « حديث في زمن لا يركد عجاذه » و « نبشات في جدار الزمن » . ويفاحثك ثراء معجمه فتغمرك ألفاظه وتراكيبه وصفاته ووسائله البلاغية .

(I) « دهاليز الزمن الممتد » - أبو بكر العيادي - دار الرياح الاربع للنشر 1986 .

ـ نظام السرد وحركية الزمن بين الانجاس والانعتاق :

تظهر البنية السردية فى بعض الاقاصيص شبيهة بالدائرة يتجلى ذلك فى « الزمن الصديء » و « بقايا هوى » و « غرباء » و « حديث فى زمن لا يركد عجاجة » و « الاسم الموصول » و « حكاية الرجل العاري » و « موجة هادرة » و « نبشات فى جدار الزمن » و « دهاليز الزمن الممتد » و « توقيعات شهود عيان » و « حكاية المواطن عبد الخالق » و « الأمل المشنوق » و « البحث عن البسمة المفقودة » .

وكان الرؤية القصصية تبحث لها عن متنفس فى فضاء سردي آخر ، فاذا بالدائرة تنفتح بدرجات متفاوتة فى « الجرح الجبار » و « الخرطوم والمعول » و « حين يعلو النهيق » . وينضم الى الحاضر والماضى زمن ثالث قلما نراه يمثل فى أدبنا القصصي والروائي فى هذا الزمن القاتم ، وهو المستقبل .

إن الجمع بين النمط السردي الدائري والدائري المفتوح أضفى على هذه المجموعة القصصية قيمة فنية وفكرية فى آن وجعلنا نثقيد بالنصوص نبحت فيها عن الواقع والواقع الآخر المنتظر . فاذا التشاؤم موضوعي ايجابى التوجه وكذلك اشراقات الأمل فهى بعيدة عن التصنع والتظاهر واطلاق الشعارات المنمقة .

أ ـ نظام السرد الدائري :

المدينة سجن فظيع ، عبرت القصة التونسية عن ذلك بكشافة فى السبعينات والثمانينات . وفى فضائها الخانق ينتفى المستقبل لان الازقة والمباني المتراصة وقسوة الانسان تمنع أى تطلع الى الغد ، وتهرع الذات الى الماضى تبحث فيه عن وجه الاطمئنان ، ولكن الحاضر ورم خبيث يمتص الاحلام الجميلة ويمنع أى طموح بناء .

يعتقل الانسان فى « الزمن الصديء » دون أى سبب ويودع السجن . وهو عاطل عن الشغل أو معطل يرغب فى العمل ولا يحصل عليه ، والارادة ـ هى الاخرى ـ معطلة . تبدأ الحركات فى « زمن الحاضر » خافطة الوظيفة لان المكان سجون مدينة وسيارة الشرطة والزنزانة والنفس المرهقة تبحث عن معنى فى وجود زائف . والذاكرة ، أى الماضى ممثلا فى « مسعود بن

حامد بن سعيد « والام والاخت والقرية والارض علامات وجود مدمر ، وقوة الدمار تتركز في المدينة ، تنطلق القصة من الاعتقال في السيارة وتنتهي ببدء التحقيق البوليسى ، وفي صميم الدائرة تتضخم الاوجاع ولا شىء بعد ذلك لان الوعي اشكالي لا يتجاوز حدود الرؤية المأساوية .

و « فى بقايا هوى » تتقلص نقطة الحاضر ويتضخم الماضى على السنة الأم ، فيتعطل الحاضر ويموت المستقبل . « يوم تلاشى الامل فى مناهات السأم ، وتحولت وجوه الرجال الى غيمة لا تهطل مطرا ، وجف حلق الارض فانكشفت مفاتها ، صار الخواء ينهشنا فنموت فى اليوم ألف مرة ومرة » (2) وتنشق أول نقطة فى الدائرة من الضمير المفرد المتكلم المتسائل . وتكون « مريم » هى الطاقة المولدة للحياة فى النص القصصى ، والأب العاشق مكملها اذ لا معنى لمعشوق دون عاشق . و « مريم » الانثى رمز لعاطفة لا تفنى هى أنبل العواطف الانسانية وأسمائها ، ارتبط وجودها بزمن صديء ، « كان زمنا صدئا يا ولدى ولكننا كنا نطعم من جوع وان كنا لا نأمن من خوف » (3) هى المرأة السراب أو الحلم اختفت فى الزمن الطاهر وهى الى ذلك ماتت فى الذاكرة . ولغة الاقصوصة تنطبق - أساسا - بالحالات « يزحف الكدر - يتفاقم ضيقه - يرسل تنهيدة - الكئيبة - يتفطر قلب والدى تضحك باستخفاف - متاهات السأم - نموت فى اليوم ألف مرة ومرة - تزهو بأنوثتها - إيه يا ولدى - ويطل وجهها ينز بالقهر - ٠٠٠ » ولا تحتل الحركات وظيفة أساسية ، وهى بطيئة : « يظل يرمى الحصى - تسوي اللحاف - تهدده - أزحف الى الحصى - تمطت القرية ذات صباح » أما الصفات فقد تركزت فى موضع واحد لابرار جمال « مريم » الانثوى . « فتاة جميلة القد ، شقراء الشعر هبت على وجهها نسمة النضج قالوا ، ورثت عن أمها اشراقة الوجه وصفاء العينين والقد الالهيف . » (4) لقد تعثر الاب والناس والحياة بأكملها واكتسحت المدينة الفضاء القروى ، ولكن « مريم » تظل ، ثانية فى الذاكرة . فهى طاقة النص المولدة الكبرى ، هى المجد القديم ، علامة حضارية مشرقة تراح اليها النفس تعويضا عن واقع مرير ، والنهاية توقف حركة ، تعطل ، تشتت قوى ، اكتمال ضياع .

(2) المصدر السابق الذكر - ص 23 .

(3) المصدر السابق - ص 24 .

ويتواصل حضور السرد الدائري في « غرباء » . انها أقصوصة مهاجر تائه في بلاد الغرب ، وحياته تفاعلة ، والمدينة الغربية سجن رهيب . « ينتشرون في شرايين المدينة الضيقة حد الاختناق » (5) ويحرص المؤلف في هذا السياق على استخدام الضحك القاتم لإبراز القطيعة النفسية والحضارية بين المهاجر والمحيط الجديد . .

إن « غرباء » حكاية الموت بالمجان في عالم لا يرحم ، والحركات والافعال فيها تفصح عن المهانة والضياع الحضاري .

وفي « حديث في زمن لا يركد عجاجه » يكون الليل بسواده منطلق السرد ، يرتد الى الوراء وينبثق السؤال « هل مات جدي ؟ »

إن الجدل - في واقع النص - صورة أخرى لـ « مريم » ، هو العلامة المشرقة الرمز ، الماضي النابض حياة . . ويدفع كلام الأب الابن الى استبطان ذاته « جدك بين يديك » ، إن سميت اليه جاءك وإن توانيت مر أمامك مر السحاب تراه ولا تدركه « (6) ويتنطق الجد في قيعان الذات بقصة الماضي . فليس هذا الزمن اشراقا كاملا ذلك أن السلطة - صاحب السيادة المطلقة - هو أهم صفة لذلك الزمن ، والخوف أحد ثوابته يسكن القلوب ويشل طاقات التفكير . . وتنتهي الاقصوصة « بتلعثم الجد » و « خجله » و « تنبهت » صورته في الذاكرة ويعود الحاضر الى الفضاء السردي ويغيم الماضي ، يرقد في قيعان الذات وفي « الاسم الموصول » تكتمل صورة الدائرة . إنها الارض تدفع صاحبها الى المقاومة في زمن مضى . فيتطوع في معركة الجلاء عن بنزرت . « لطالما سألت منك دماء ولم تنحدر من عينيك دمعة . . » (7) إن حياة الماضي وجود زاخر بالمعاني لان الغاية من الكفاح قوة دافعة الى مستقبل منتظر الا أن مأساة الحاضر تكمن في ذلك الحواء . « تنتصب جذعا خاويا وسط الاشجار الوريقة . . » (8) فيفقد الابن الى الابد ويجبر على بيع

(4) المصدر السابق - ص 26 .

(5) المصدر السابق - ص 30 .

(6) المصدر السابق - ص 35 .

(7) المصدر السابق - ص 41 .

(8) المصدر السابق - ص 40 .

جزء من أرض الاجداد الى أحد السادة لبناء قصر ، وتكون النهاية اكتمال
المأساة بضياح الارض والامل .

إن الماضي شقاء وأمل والحاضر فاجعة كبرى .

ومن صفات الحاضر المرير في « حكاية الرجل العاري » واقع السائد
والمسوس . . توظف الحكاية في مجال قصصي . فيحافظ النص على أدبيته
ولا يتحول الى وثيقة عارية ، ، وتبلغ الفكرة بوسائل فنية تمزج بين الواقع
والخيال الناطق . ان «الرجل العاري» هو رمز الانسان العربي عامة يدخله
المؤلف قصر السلطان ليعلمه بواقع الفقراء مثله ويقترح عليه الحلول
« الثورية » الملائمة لنسق « عصور الانحطاط والجماد » وتحقيق مجتمع
متقدم . ولكن الرجل يقبل على الطعام والشراب بنهم وينسى المهمة التي من
أجلها دخل الى القصر . «فراح يعب منها بشراة ويروى ظمأ أبديا كخلايا
أسفنجية يمتص كل شيء » (9) إن التحول الذي شهدته شخصية الرجل
انعكس في المظهر بأن أصبح بدينا وقد كان في البدء نحيل الجسم كما برز
في كنه الشخصية ، « يغادر القصر راقصا مصفقا هاتفا بحياة السلطان
الوحيد الاوحد الاحد . . » (10) إنها قصة الاحباط السياسي . فلا تختلف
صورة السائس عما كانت عليه في الماضي والضحك القاتم في هذه
الاقصوصة أداة تتخذ لتعزية بعض الحقائق المعلومة في حياتنا اليومية ، ولكن
المالوف يتحول مع ذلك الى عجيب . وتطرح في سياق فني أهم قضية في
اشكاليتنا الحضارية الكبرى . واقع الصلة بين السائس والمسوس في
مجتمعنا العربي .

وتجدر الملاحظة الى موضوعية التصور الابداعي وشموله ، ذلك ما يجعل
هذا النص يمتاز عن كثير من النصوص القصصية . فيضع أبو بكر العيادي
السائس والمسوس في قفص اتهام واحد ، ولا يتعصب لاحد على الآخر . ان
نظام الاقصوصة السردية دائري مغلق ليلي الصورة ، لان الماضي - المتنفس
غائب في هذا المجال والمستقبل كالعادة ، فراغ مهول مما جعل الحاضر المرير
يتسامق وتتكشف فواجهه بالسلطان و « الرجل العاري » معا . ولا شيء
بعد الحاتمة .

(9) المصدر السابق - ص 49

(10) المصدر السابق - ص 51

و « فى موجة هادرة » يتجاوز المؤلف أسلوب الحكاية التعبيري الى فن السيناريو ، وتراه يستخدم الوحدات التصويرية • لقد انتقلت رؤية القاص من قصر السلطان الى الشارع • والمشغل السياسى هو محور هذه الاقصوصة أيضا • • ولئن كان القصر فضاء التوحد المطلق باسم السلطان الحاكم الاوحد فان الشارع مجال للتقسيم الذى يصل حد الفوضى • • مشاهد تتعاقب ، وقد لعب المقص دورا فنيا هاما فاقتطع صورا معبرة عن واقع التقسيم : حوار فى مقهى حول اغلاق محل تجارى بسبب الترفيع فى سعر • • يليه حوار بين شاب وفتاة متحابين • وفى موقع آخر من المقهى يجلس شبان وفتيات يتحدثون عن الموسيقى الغربية وآخر مستجداتها • • « زبائن متكثرون على المقصف يحتسون مشروباتهم المفضلة » ، وجمع من الجالسين يتباحثون فى أسلوب للتعبير عن رفضهم لقرار نقل « تمثال العلامة » • ويحتد النقاش ثم يحصل ما يشبه الاتفاق ، وينظم التجمع وتندلع المظاهرة • وفى الاثناء ينتشر خبر مفاده أن « سكان المريخ » يهجمون على سكان الارض وتفشل المظاهرة • «دهمهم الفزع • تحركوا فى كل الاتجاهات كدجاج يلوذ بقنه • لم يأبهوا برجل كسيح يصبح • • » (II) وينفذ القرار فى الاخير ، فينقل التمثال من مكان ويحفظ فى المتحف •

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

تلك هى الاحداث تفصح عن واقع سياسى وضيع • • سلطان حائر لا يرحم وشعب مشئت القوى ، ومثقفوه جلاس المقاهى مهمشون عن الواقع • • إنه المجتمع العربى يبرز فى وقائع اقليمية مشلول الارادة السياسية • وخاتمة الاقصوصة توقف حركة ، فراغ قاتل • ويتجلى الموت أو الفراغ مرة أخرى فى « نبشات فى جدار الزمن » • تحتل الانثى من جديد مركزا دلاليا هاما ، هى الماضى الحالم ، ماضى الحكايات المتجددة كـ « ملك الحوت » الذى خرق القانون عدة مرات وسن القوانين لافتك بالسلك الضعيف • •

ويعود الراوي من المدينة الى الريف – مسقط الرأس – وفى الطريق يتردد السرد بين الماضى الحالم – ماضيها الحكائي – والحاضر زمن المواجه المتكررة • فتختفى ويظل صوتها فى قاع الذات حيا • ولكن الحاضر هو المسيطر • •

(II) المصدر السابق – ص 61

« تتلاقى الاجساد فى احتضان طويل • ولكن بين جسدك وأجسادهم يبقى حائل رقيق من الغربة لا يذيبه الاحتضان » (I2) •

أما « دهاليز الزمن الممتد » فهي قصة « سالم بوراس » الذى اعتاد كغيره من الناس على الاستسلام لمشيئة الاقربى فى مجتمع التسلط ••• واشتدت فاجعته كفرد مسحوق الارادة • فأوحى اليه وجوده الزائف بفكرة غريبة أسرع فى تنفيذها بأن وضع جرتين قريبا من الطريق وسط لحقول فى يوم قاطئ ، وأخذ يمارس السلطة يأمر أول محتاج الى الماء أن يشرب من احدى الجرتين ••• ويظل الماء والعطش والضحك القاتم وشعور الفرد بالانسحاق ملازمة النص توجهه فى متاهة زمن مجذب • إن التكالب على السلطة خاصية المجتمع المهزوم المتخلف حضاريا - ، وهو ظاهرة معبرة عن تغلب الشعور الفرادى واضمحلال الوعى الجموعى ، وبذلك تكتمل الدائرة ، ولا شىء فى الافق •

ويستخدم الكاتب فى « توقيعات شهود عيان » أسلوب التحقيق الصحافي •• وحدات قصصية تتعاقب لترسم فى البدء اطار الحدث الاكبر •• والزمن فى القرية هو الرتبة • « ويطول الانتظار وتمتد الايام مسربة بالرتبة » (I3) ويجلس الرجال فى دكان « عبد السلام » يقتلون الوقت • وفى دائرة الضياع والرتبة يتم الخوف من السلطة السياسية ممثلة فى العمدة •• يقول « عبد السلام ك (عطار) : « أنا أحب حضرة العمدة •• أعبد •• ارحمنى يا سيدى أنا أب لسبعة أطفال •• » (I4) ، ويكشف السرد عن حقيقة العمدة الذى خان الوطن فى معركة التحرير الوطنية •• ويدعي الشجاعة والبطولة • وينتهى المسار القصصى بالاحباط وتواصل المهزلة التاريخية • فيقدم العمدة على قتل الرجل الذى يعلم الحقيقة ويحكم « عبد الوهاب » ظلما ثم يطلق سراحه ويحفظ ملف القضية ويبقى العمدة محافظا على مركزه • لا يتغير الوضع لان أبناء القرية يعلمون الحقيقة ولكنهم مقعدون اراديا •••

(I2) المصدر السابق - ص 70

(I3) المصدر السابق - ص 85

(I4) المصدر السابق - ص 86

وتشتد المرارة فى « حكاية المواطن عبد الخالق » ، وتضيق كل الممرات ضوء خافت « نور صباح كئيب » ، ويتفتت الكيان الواحد الى شظايا ، ويدمر الحوف وحدة الذات . . « أترجع مأخوذا بحذر غريرى يعتقل عبد الخالق لان له شعرا كثيفا يكسو الرأس ويغطي الوجه . . إن الشعر فى قاموس السلطة يعنى المغامرة وهو فى المدلول الجنسى علامة الفحولة ، والفحولة خط تقرأ له السلطة ألف حساب . . ويحلل شعر اللحية ، فيتحول القتام الى قتام أشد بالضحك والغرابة . » وطال بهم التحليل والفحص والتجريب فعادوا لتنظيف شعر لحيتى . . « (I5) ويفرج عن عبد الخالق : فقرر أن يزيل كل أثر للشعر فى جسمه . ثم يعود الى الشارع وتحصل المفاجأة . ويقص النظر بالاحباط اذ تعبر الشارع كاللحى الكثى ، وأضاع عبد الخالق « الرجولة » الى الابد . فبلغت المرارة أقصاها ، وكان الضياع .

وفى « الامل المشنوق » يتزوج ريفى بامرأة لا يختارها ارضاء للاب واحتراما للقيم السائدة فى وسطه الاجتماعى ، ثم يحب فتاة فيما بعد ، ويظل مترددا بين تطبيق الزوجة والسير فى درب المرأة المحبوبة وينتهى المسار بالتضحية من أجل الابن فتنتصر الأبوة الصادقة ، ولكن الحب يفشل ويستقطب الموت أسمى العواطف الانسانية . إنها قصة التعطل الذاتى تدعم صورة التعطل الاجتماعى والسياسى والحضارى . .

وتكتمل صورة التعطل فى « البحث عن البسمة المفقودة » . اقتصاد « حر » ساعد أحدهم على الاستقرار السريع « انثالت عليك الدنيا انثيالا ففرقت وغرقت وطلبت المزيد . . » (I6) فاستطاع أن يملك نزلا فاخرا فى وقت وجيز . ولكن هذا النزل يحرق ، ويقرر الرجل أن يبيع كل شئ ، « بعت السيارات والاثاث والآلات . . بعت كل شئ ، ولكن لم تعد الابتسامة » (I7) ان الموت يكتسح الجميع ، والتعطل ، كما أسلفنا . . حقيقة المجتمع ، لغز يحير .

(I5) المصدر السابق - ص 97 .

(I6) المصدر السابق - ص II7 .

(I7) المصدر السابق - ص II9 .

وهكذا فان جل الافعال فى الاقاصيص المذكورة تنتهي بالاحباط ، وتظل الارادة سلاحا مفلولا وقوى الدمار الجلية والخفية معا لا تدع اى عمل يكتمل .

ب - نظام السرد الدائري المفتوح :

الفضاء موحش فى « الجرح الجبار » يبرز ذلك فى الوحدة القصصية الاولى وتقع الافعال فى مجال من الرعب .. « الظلام » و « الخفا » و « الفضاء المصطبغ بلون رمادي قاتم » و « سحب الدخان » والاسلاك .. ومع ذلك تحقق الارادة الانسانية ما تتوق اليه . وتقدر المرأة الفلسطينية المناضلة على ان تزرع عبوة ناسفة فى ارض الاحتلال الصهيونى . وفى جانب آخر من الوطن الكبير يتململ أحمد سكران فى فراشه - يبرز ذلك فى الوحدة القصصية الثانية - وتتواصل المقابلة المقصودة بين الفعل الانسانى الثوري والافعال والاقوال الدالة على الخسة وتزييف الحقيقة .. فنلاحظ اصرار الاسيرة البطلة على رفض الادلاء بأى اعتراف فى حين يبرز الحديث الصحافى نبأ « مؤتمر القمة » و « البيان المشترك » و « درس امكانية بعث صندوق لدعم المقاومة » (18) أمثلة عكسية . كاد النظام السردى يخضع هو الآخر لانغلاق الدائرة .. ولكن صورة المناضلة الفلسطينية تقف بالمرصاد وتمنع اى انحباس بما قدمته من اعمال بطولية يعجز عنها « أحمد » وكثير من « الرجال » فى وطننا الاكبر .

وفى الخرطوم والمعول « تكون النهاية مفتوحة .. عامل ريفي الاصل يشتغل بستانيا عند أحد السادة ، وهو فى الاصل فلاح ولكن قلة الماء عاقته عن الارتباط بالارض . ويعود الى مسقط الرأس فى احدى زياراته ويفاجأ بنضوب الماء فيسعى مع عدد من الرجال الى حفر بئر جديدة ، ولكن الامل لا يتحقق ، وتتراعى لرجل صور « الماء ينسكب بلا حساب على السيارات الماء يتدفق من الخرطوم ... » (19) فى منازل السادة الابرياء قطاع المدينة ، ويندفع بقوة الى أنبوب المياه الضخم ويهوى عليه بالمعول ولم يستسلم الارادة للامر الواقع بل كان التمرد تعبيرا عن بقايا نبض الحياة فى ذات الانسان .

(18) المصدر السابق - ص 18 .

(19) المصدر السابق - ص 112 .

ويمزج القاص في «حين يعلو النقيق» بين قصة اطارية وأخرى افرعية . . يقدم المعلم درسا لتلاميذه يتخلله شرح نص ثعلب يهجم على حيوانات الحضيرة ويفتك بها وفي كل مرة ينهق الحمار ولا يقدر على شيء آخر - أى يكتفى بالتعبير عن الاستياء بالقول - ولكن الثعلب لا يتوقف عن الحاق الضرر بسكان الحضيرة . . . ويرفع أحد التلاميذ خلال قراءة المعلم للنص إصبعه عدة مرات والمعلم يرجي تدخله . . وبعد التدخل في الاخير دافعا كبيرا في مسار الاحداث يخرج النص من فضاء الدائرة ، ويتصور التلاميذ الحل . . لم يندهشوا في الاول لان قصة الثعلب تعرض مساء كل يوم على شاشة التلفزة ثم يتدرب وعيهم في البحث عن الحل . . ان الخروج من المازق لا يكون الا بتعويد الحميز بكائيات تفكر لتغيير الذهنية السائدة في تحويل النوهن الى قوة . . والاطفال هل جيل المستقبل لانهم تفتنوا الى الحل وهم بناء لا محالة .

وهكذا يختم أبو بكر العيادي مجموعته القصصية برؤية مستقبله مشرقة إن الطفولة أمل صادق جميل . فهي العلامة الضوئية في ليل حضارتنا المقعدة . . نراها تبرر في الماضي ذكرى ممتعة ، حكاية نقص قبل أن تكتسح التلفزة البيوت شعورا قويا بالارتباط الى الأب والأم والجد والترات والقرية والارض ، والطفولة في الحاضر حيرة . تسأول ، بحث بناء عن معنى في غمرة وجود زائف ، تصل أحيانا حد الهاجس ، تغمر الذات وتمنع اليأس من الاستفحال ، وهي المستقبل يتخمر في قيعان الزمن الراهن بالرغم من الاوجاع والاحزان الكثيرة .

● لقد استخدم أبو بكر العيادي في أقاصيصه وسائل تبليغ متعددة جمع فيها بين فنيات السرد القصصي بمدلوله المعاصر والحكاية التراثية في بعض المواطن والسناريو بتوظيف الوحدات التصويرية والمسرح باعتماد الحوار الزاخر بالمشاعر الانسانية وتركيز الصورة الموحية والتحقيق الصحافي بادراج أساليب القطع والاختصار المعبرين . . .

ولهذا أمكن اعتباره تجريبي التصور الفني قريبا من جيل السبعينات يبحث عن قصة تونسية عربية « لحما ودما » ويتفرد في الان نفسه عن هذا الجيل بعديد السمات فلا يسقط في التجريب الشكلائي ويتمسك فلا يحرص على تبليغه الى القارىء ايمانا بالوظيفة الادبية .

● ولا عجب في أن تكون « دهاليز الزمن الممتد » همزة وصل بين جيل السبعينات وجيل الثمانينات تعبر عن مفهومي للتجريب القصصي ولا تتجاوز كليا مدلول الحدث في القصة التقليدية ، تحتار - فنيا - ولا تتعصب لرؤية فنية منغلقة على ذاتها .

● إن الزمن الهاجس الحضاري - كما أسلفنا - يسكن النصوص ويوجهها بعيدا عن مدار الشكلائية . فاذا الاثر القصصي حركة سردية زمنية ، وعاء حركي يكتم زمنا هو الواقع القومي : مجتمع ممزق الاوصال تسوده الانانية وتلوح بنبته السياسية تعطلا كاملا يشل الحركة ، ويتحد السائس بالمسوس - وإن تناقضت في المصلحة - لاجهاض كل جديد يحول الموت الى نبض حياة . وفي هذا الجسد الاجتماعي المشلول يدفع الريف الى لفراغ الخانق ويسحق الفقراء وتنهد ارادة الفرد والجماعة ويغمر التعطل كل الطبقات والمؤسسات الاجتماعية . .

● وأبو بكر العيادي شديد الاعتزاز بانتمائه القروي ، حريص على أن يبقى مشدودا الى الجذور الاولى ، يذوب عشقا في ارتباطه بتاريخه العربي دون إنكار ملامحه التونسية . . . وقد تزداد هذه المعاني وضوحا بدراسة بنية لغته القصصية الموظفة والوقوف بتأن عند ذلك الجمع بين الوسائل التعبيرية التراثية والصيغ المعاصرة . . . نقد ملامح الشخصيات استكناه وظائفها الاساسية والمساعدة . وهي مواضيع مقالات أخرى إن صورة الزمن الفنية والحضارية - في رأبي - باب كبير خاص بمجموعة « دهاليز الزمن الممتد » ، وهو الاطار الشامل وأهم الركائز البنيوية والوظيفية . ولكن القراءة الشمولية تستدعي تدقيق عناصر التركيب وتقصى المعاني الفرعية وهو عمل يضيف به مقال واحد .

مصطفى الكيلاني

الوجه الثالث للعملة

أعيتني الارض وأتعبتني السماء .

أعياني الغوص الى قيعان البحار والمحيطات ، أهلكني التطواف فوق تضاريس الياصلة بين القطبين ، فى مهامة الصحارى ، على قمم الجبال ، بين بسائط السهول .

تهت فى أزقة المدن القديمة والجديدة قلبت الكون سرا جهرا ، نبشت القبور - بحثا عنها - قبرا قبرا .

تركت الارض وتوجهت الى السماء القريبة على كل شىء ، عرجت على السماوات السبع الطباق سماء سماء ، أمعنت فى المعراج . فتشت عنها فى السماء الثامنة ، وساءلت كل كوكب ، كل نجم عنها .

زرت كل العرافين والعرافات مددت فناجين قهوتى لكل قارئات الفنجان . عرضت كفى على خبراء الاكف ناشدتهم واحدا واحدا ، واحدة واحدة أن يخبروني عنها ، أو عن مسار نجمها لم اهتم الى شىء .

لم يسعبنى المعراج والعرافون بشىء .

قمت بالاسراء .

سريت الى كل مكتبات ومتاحف العالم . ساءلت كل حفرة أو صخرة نائثة أو مطمورة . استجديت كل ورقة فى كل كتاب . ناشدت كل كلمة وسطر

خامرني شكى و يقيني التوأمان : قد تكون مختفية فى كتاب سحري ما . قرأت كتب الدنيا الشفوية والمدونة ، باللغات المعروفة والمجهولة والمنسية . أمعنت فى التفتيش والبحث . قرأت الفراغ ما بين كل كلمة وكلمة ، والفضاء

ما بين كل سطر وسطر . ما دامت السطور خلوا منها فلا بأس أن أقرأ ما بين السطور . . . ثم تركت المتون فقرأت الهوامش والحواشي . . . عدت فحدقت في الفاصلة والقاطعة والشارحة . وساءلت الشرطة العادية والشرطة المائلة الشرطة المضمرة . استفهمت كل اشارات الاستفهام والاستعجاب والاستغراب . . . علقت في الضمة والكسرة والفتحة . . . وسائر حروف العلة والحروف الصامتة عساها تنطق وتبوح لي بها . . .

صرخت في الحرف الصامت :

– الصمت هو الموت !

صرخت في حروف العلة :

– العلة اذن هي الموت !

عدت أبحث عنها في أشكال الحيوانات . في الفواقع والاصداف والمجارات . في الخلايا ، وفي الحيويات المتعددة الخلايا . في الرخوات وفي الفقاريات . . .

رحلت الى عصور طيور الزخ والدنياصور والمأموث . . . ثم صعدت السلالم التي قادتنى الى ما أصبح يعرف – اصطلاحاً – بالانسان ، تأملت في الشعوب والقبائل من كل زوجين اثنين ، ذكر وأنثى . . . بحثت عنها في العينين : هذا المدعو الانسان لا يختلف عن بقية افراد عائلته الفقارية ، بل وعن جميع الاحياء في موضوع العينين . العينان دائماً كرتان صغيرتان عالقتان فوق الانف ، وعلى مقربة من المنخ .

بحثت عنها في جميع الاعضاء . جميع اعضاء الانسان لا تختلف عن بقية الاحياء ، بما في ذلك الاعضاء التناسلية ، لا يختلف الانسان عن الحشرات في اخفائها – ليس حياء وحشمة – بل غيرة واعتزازا أو خوفاً من العين الشريرة .

قلت لهم في نهاية الفصل : إنها لا تشبهكم في شيء .

كل المخلوقات ، عاليها وسافلها أصيبت بالحرس ، أمام اسئلتي في البحث عنها . حينئذ كررت صرختي :

- الصمت هو الموت !

- العلة هي الموت !

فكرت أن أكرر المعراج الى السماوات مرة أخرى • لكنني أهجمت • ليس من الذوق ولا من حسن اللياقة أن أزعج من فى الاعالى مرة أخرى أو مهما كان هذا الشيء الذى أبحث عنه عزيزا • صحيح أن الله صبور • لكن للصبر حدود ، للمعراج حدود وقوانين واعراف •

لم أشأ أن أصبح الله • وليس فى قدرتى أن أتعب أكثر ما تعبت وتجشمت •
لقد أعيتني الارض وأتعبتني السماء •
بعد كل هذا الغوص والتطواف أصابتني قاصمة الظهر •

قبل ذلك كنت لا أكف عن استقصاء أثرها • لا أمل الاستفسار • لا أتوقف عن الاستكشاف ••• أملا فى أن أشم لها رائحة أو ألمح لها اثرا •
الان ••• بعد أن حلت بي قاصمة الظهر ، أصبحت لا أملك الا الاستلقاء •
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

هذا لا يعنى الاستسلام - صحيح أن صمت الاشياء هو قاصمة الظهر ، لكن رأسي منذ عقود طويلة أصبح مكونا بايقاعات ذلك المعنى الفجري :

مررت على الجبانة •

لقيت الناس رقود ••• الخ

لم ينكر وجودها الاحياء فقط ، بل حتى الجماد أنكرها • كنت أتوقع أن أرى طيفا من أطياها فى قاع المحيطات ، أو على رمل الصحراء أو قسم الجبال ••• لكنهم أنكروها بالاجماع !••• هذا شيء قبيح ، أليس قبيحا أن تنكر الدنيا وجود شيء موجود ؟،

لكن ••• ما دام كل شيء قبيحا الى هذا الحد الذى يقصم الظهر ، فلا أقل من القاء عصا الترحال والاستلقاء •• لا أقل من الانتقال من عالم المرئيات •• الى مملكة الاصوات •

(2)

قبل أن ألقى عصا تو حالى ، وأستلقى على حافة قبري ، كنت أملك الكثير من الارماق .

الان ... بعد أن أنكرها الجميع ، بعد أن أنكرتها الدنيا ، وأنكرتها الآخرة ... لم يبق فى حوزتي سوى بضعة أرماق . حتى هذه الحفنة من الارماق أراها تبدأ فى العد التنازلى . لكن ... رغم كل ذلك فهذا شئ جيد . شئ جيد أن يحتفظ المرء برفق أو رفقين ، اذ لو كان العاشق شخصا آخر غيري ، لقضى حبه ونحبه منذ زمن طويل .

أنا ما زلت أملك ارماقا ، هذه الارماق قد تكفي للحياة الجديدة فى مملكة الاصوات . فلتدر الارض حول نفسها . فلتتوقف الارض عن الدوران . واذا شاء الله فليدر الارض حول الشمس واذا شاءت الشمس فلتدر هى حول الارض ... ما الذى يهمني من كل هذا اللف والدوران ؟ ... هذا العالم الخارجى الداخلى لم يعد يهمني بعد صمته القبيح . لم يعد يهمني سوى هذا الراديو .. هذه الاصوات التى تندفع منه ... على صوتها منها يكون صوتها ... هذه التى أبحث عنها ولا أجدها .

لم أعد أخرج الى البحر وأمواجه لاغوص فى قيعانه . الامواج أصبحت طوع أصابعي . أدير مفتاح الراديو فينطلق الصوت ... ثم أطلق يدي فى المؤشر متجولا بين محطات الدنيا وأصواتها ، بحثا عن آهة من آهاتها ...

الامواج فى يدي ، لن تغرقني مهما كانت عنيفة هادرة .. طويلة أو متوسطة ، عالية مرتفعة أو صاخبة صارخة ... ما لم تستدلع العينان أن ترياها ، تستطيع الاذنان أن تسمعاها ، هب أن لا أمل لى فى رؤيتها ... هذا لا يعني أنني لا أسمع صوتها . هل هذه حقيقة ثابتة ؟ الحقيقة والاكذوبة وجهان لعملة واحدة لكن للعملة وجه ثالث .. هذا الوجه ممكن مهما كان مستحيلا ..

بين صخب وأصوات محطات الدنيا والاخرى قد ينبثق فجأة صوتها تحت مؤشر الراديو .. تماما مثلما ينفجر ينبوع ماء فى الصحراء أو ينهمر وابل من المطر فى صيف قاطظ .

هل يمكن أن أسمع صوتها خلال اذاعة من اذاعات الدنيا ؟

لم يعد لي مزاج للضحك ، لكن قبل هذه التداعيات جعلتني أنفجر ضاحكا بصوت سري : الاذاعات دعايات ٠٠ ولا يليق التمدادى فى قلة الادب ، لا معنى للتفكير بأن الدعايات أكاذيب ، لا معنى لكثير من الاشياء الا بوجود نقيضها : الاذاعات ليست دعايات بالمعنى الحقيقي للكلمة لان الحقائق ليس لها معنى من هذه المعانى الحقيقة للكلمات ٠ حتى أصوات الموسيقى بدأت تتلوث بعدوى هذا الوباء ٠ لكن لا بد من الاستدراك وترديد التعبير الشائع : لا يصح التعميم فى الاحكام : هناك أنواع لا تحصي من الارسال اللاسلكي ، تحملها أمواج الراديو لكنها منزهة عن الدعاية والكذب ٠ الرعد مثلا يمكن التقاطه صاخبا محتجا ٠

لا الرعد يكذب ولا البرق يمارس التدليس ٠

صوتها لا يمكن لاذنى أن تحلم به الا فى ثنايا دمدمات الرعد ، فى خطفة من خطفات البرق ، فى تقلصات عضلات الصخر ، فى توترات اعصاب الماء ٠٠ كل هؤلاء الفرسان يمكن أن يمتطوا أمواج الجهاز ٠

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

صوتها قد يأتيني فى تشنجات نجم ما فى بعض المجرات القريبة من الله ٠ كل هذه الفروض لا يمكن التغاضى عنها أو اهمالها ٠

لكن ذلك اليوم الذى كنت أعتبره يوما من الايام العادية ، يوما مثل سائر الايام ، كنت مستلقيا كعادتي أدير مؤشر الراديو بين الامواج الهادرة والهادئة ، القصيرة والطويلة ٠ أحرك المؤشر فأجنب ما وسعتنى الحيلة اذاعات الدنيا والاصوات الآدمية ، لأصغى الى تقلصات عضلات الصخور ، والاصوات المتوترة عبر أعصاب الماء والهواء ٠ أصيغ السمع عسى ألتقط فجأة صوتها ٠ أما عيناى فلم أعد احتاج اليهما الا لمراقبة مؤتمر الجهاز خلف لوحته الزجاجية ٠ عيناى نسيئا عالم المرئيات ، ارتاحتا فى محجريهما ، لم تعودا تهتمان بشئ سوى هذا المؤشر ٠ هذا الحيط الدقيق الواقف خلف سياجه الزجاجي ٠٠٠ فى لحظة مباغتة - رغم نسيان عيني لتلوينات الاشياء - خيل إلي أنني لمحت شيئا ما يتحرك خلف لوحة المؤشر ، منطلقا من احد ركنيها الى الركن الآخر ٠ لكننى لم ألبث أن كذبت ما رأيت ، عيناى

نسيتا أشكال المراثيات . أشار الى يقينى أن ليس ثمة خلف الواجهة سوى مؤشر الراديو ، ولا يمكن للمؤشر أن يتحرك هكذا من تلقاء نفسه ، كيف ؟ المؤشر هو الشيء الوحيد الذى يستطيع أن أتحكم فيه بعد أن فلتت من يدي كل الاشياء ...

لم استسلم للحظة المباغثة . استأنفت القفز بالمؤشر فوق اذاعات الدنيا بأصواتها الآدمية والموسيقية المشبوهة .. عدوت فى اتجاه أصوات رياح القبلى والرعد والبرق ، تشنجات الاحجار والجبال واعصاب البحر .

استدعيت هذه المرة من قاع دماغي ذاكرة العين القديمة .

لم يكن أمرا ميسورا أن استدعى تلك الذاكرة المضمحلة الى عيني المتقاعدتين . هذا جهد مرهق سيكون على حساب أذني المستنفرتين أبدا والمتحفزتين ، وهذا ارهاق لا يطيقه منهوك القوى ، مقصوم الظهر مثلي .

بعد زمن من التحديق المضنى ، شككت فيما شككت فيه عدة مرات .. فى كل مرة أشك فيما شككت فيه أو صدقته فى المرة السابقة ... لم أبارح دائرة الشك . جهودى المتوالية فى استدعاء ذاكرة عين أدخلتني الى دائرة المراوحة بين الشك والشك . ثم ان عقلي تدخل بفضول : لا الشك شك ولا الصدق صدق . لا جدوى من التصديق أو التكذيب . الحقيقة يمكن تجسيدها أكذوبة ، والاكذوبة يمكن تحويلها حقيقة ، سيان ، ففى جميع الاحوال يمكن استخدام المنطق فى اثبات الشيء ونفيه ، وفى آخر الامر فلا الشيء شيء ولا النقيض نقيض ... دائرة فراغ .

دائرة الفراغ هذه التهمت المزيد من الجهد المضنى لاستدعاء الذاكرة القديمة .. أفلت من دائرة الفراغ فأدخل الى دائرة أخرى لا اسم لها . هنا بدأت أتارجح بين القاع والسطح . ما الذى خدر الحواس ؟ تشاقت الاذنان . زاغت العينان . عقلي القابع فى قاع دماغي يبدو وكأنه قد اشبع فضوله : أحسستني أطفو فوق السطح ، كأن المراثيات قد بدأت تتراقص امام عيني . كأن عيني أنهتا عقدهما المبرم مع السهو . هاهما الآن بدأتا تريان فيما ترى العينان الوسانتان :

— شيء ما يتحرك اسرع من طرفة العين من ركن واجهة المؤشر الى الركن المقابل .

لم يعد هذا الشيء يخيل الى ... لقد خرجت من دائرة الفراغ الى دائرة لا اسم لها . . . اصبح الآن هذا الشيء يباغتني ، يباغت عيني ، ، فيما بدأت أذناي تنأيان عن الاصوات ، ربما بدأت الاصوات تنأى عن أذنى . ذاكرة الرؤية تأهلت وبدأت تنافس ذاكرة الاصفاء . . . أصوات تشنجات عضلات الصخر وتوترات اعصاب الماء بدأت تخفف قرعها لطبلتي أذني حتى توقفت تماما .

فى هذه اللحظة أبصرت قبالتى فى رقعة المؤشر صرصارا !

صرصار يجري فى رقعة المؤشر لا يلوى على شيء ، صرصار بكل قبعه ، بقرني استشعاره ، بكل جنبه ووساخته . تملكنى الغثيان حتى أوشكت أن أقذف بأحشائي . دخلت فى دوامة الغيبوبة والدوار ، استليقت بعد أن خارت قواي المتبقية . غمرني السبات .

(3)

استيقظت فى الهزيع الثالث أو الرابع من الليل . أشعلت المصباح ، واتجهت عيناى فورا الى واجهة الجهاز . . . وجدتھا تضج بالصراصير . لاحظت على الفور أن الصراصير تخاف النور . . . أسرعت تحاول الفرار الى الظلمة السائدة خلف رقعة المؤشر ، عبر شقوق لم أرھا من قبل ، لم يعد فى جوفى شيء لأقذف به الى الخارج ، ولم يعد بوسعي النوم أكثر مما نمت . ليس أمامى الآن سوى أن أتحول بحواسي الخمس وبقية الحواس عن الراديو . . . أو أن أحلق فى اللاشيء .

لكن اللاشيء نفسه كان مكتظا بالاشياء : منذ متى داهمت الصراصير خلوتي ؟ كيف استطاعت أن تتسلل الى الراديو ، والى المؤشر بالذات ، لتتجسس عما اسمع وعما لا أطيق سماعه ؟

عدت الى جهازى أتفحصه ، عسى أن يكون مثقوبا ثقبا كافيا لايواء كل هذا الجيش من الصرارير . . . هنا فطنت الى أن رقعة المؤشر خالية ، كعهدي بها قبل عصر الصراصير . حدسى لم يكن مخطئا حينما شعرت قبل قليل بأن الصراصير لا تحب النور . أنا شخصا تعودت ألا أحب النور اذا أردت سماع صوتها فى الليل . فى أحيان كثيرة يقودني النور الى الزور : أحرك المؤشر الى بعض الاذاعات الآدمية فتقتلني الدعايات . . . لكنني أصبحت

مضطرا الى محاولة سماعها فى وهج النور ... وهج النور أصبح ضروريا
أكثر من شعاع الظلمة ، اتقاء لشر رؤية الصراصير على مقربة من فمي .

هذا حل جيد .. لكن الله لم يخلق للمرء سوى ذاكرة واحدة ، وعلى
المخلوق أن يمنعها حيث يشاء . يستطيع المرء مثلا أن يضع ذاكرته حتى فى
رأسه ، بل حتى فى أى عضو من أعضائه . هنا تكمن الصعوبة فى حسم
الامر . اذا اخترت أن أبقي على ذاكرة عيني ، فعلى أذني وعلى صوتها السلام .

عدت أحرق فى اللاشيء المكتظ بكل الاشياء . فاجأني فى بؤبؤ عيني
اليمنى صرصار منطلق على طول رقعة المؤشر فى سرعة النور . حدث هذا
قبل أن أحسم أمرى فى مستقبل الذاكرة . هذا يعني أنني قبالة علامة خطر
أمامى فى الطريق لكن ليس معنى ذلك اننى أقف فى منتصف الطريق ،
الواقع اننى ولدت فى مفترق الطرق . وما أنا ذا الآن أصبحت أدور حول
جزيرة الدوران التى لا تؤدي الى أى طريق .

مهمتي الآن أن أدور وأدور ، لكي أعود ثانية للدوران . فمثلا حينما
حاولت جهدى أن أتخلّى عن ذاكرة العين ، لم يكن الامر سهلا ، لكننى كنت
اطمع أن أسمع صوتها ، وفى سبيل ذلك قمت باستدعاء ذاكرة الاذن .. حتى
لو كلفني ذلك اغتيال عيني .

درت حول الجزيرة من الشرق ، ثم غيرت اتجاه الدوران ، رغم خطورة
الاصطدام بذاكرة أخرى معاكسة ، وحوادث المرور الأخرى .

عدت من دائرة الفراغ فى الاتجاه المضاد ، ودخلت دائرة أخرى لا اسم
لها ، لكننى صممت أن يكون مستقبل الذاكرة بنفس الكيفية : - يمكن أن
أسدد كرة الذاكرة فى مرمى البصر . ثم التقطها مرة أخرى لأسدها فى
طوبة الاذن . وكما تدخل دماغى مرة بفضول ، فيمكن الاتفاق معه بأن كل
شئ يمكن أن يكون صعبا ، لكن كل شئ فى نفس الوقت يمكن أن يكون فى
منتهى السهولة .

أنا لا أحب التناقض . لقد كانت هى كل شئ لدي ، سخرت لها كل
وقتي وحواسي التى لا تحصى . لكن المرء يجب أن يكون واقعا أيضا ، دون
أن يناقض نفسه . الصراصير الآن أصبحت معطى موضوعيا ، عنصرا جديدا
دخل حياتى ، وهو عنصر لا يستهان به ، اما ذلك المغنى الذى سكن جمجمتي
وهو يغني :

مررت على الجبانة

لقيت الناس رقود

... هذا المغنى لم ير المسألة الا من زاوية منفرجة : لانه لم يولد فى مفترق الطرق . أنا الدائر المزمّن حول جزيرة الدوران . أنا المصاب بالدوار الازلى بحثا عنها ، لا بد فى سبيلها أن أواصل الدوار حتى لو انتهيت الى الدوار المضاد ... ها هو ذا صرصار يجرى فى الرقعة فى اتجاهه المضاد الذى انطلق منه منذ برهة .

أسلمنى الصرصار المباحث الى ايّاق يثرى أغنية المغنى :

فيه ميت تحت التراب

وميت بلا حدود

يا دنيا .. يا جبانة

تقاعدت عن الاستلقاء ، ذهبت أبحث عن شيء يسد فراغ أعماي . راحت عيناى تفتشان عن رشاش مبيد للحشرات . أكلت ، ثم عاينت الثقوب المتواطئة مع الصراصير ، عسى أصيب من هذه الوحوش الضئيلة مقتلا .

شرعت فى قضم الخبز واطلاق وابل من الرشاش على واجهة الجهاز . استمرأت الشروع فى القتل . غمرت الجهاز بالمبيد . كنت جاهلا بالفتحات التى يمكن أن تتسلل منها الصراصير الى الجهاز : لقد كان جهازا جديدا ، فأسرعت أبحث عن كتيبه الذى يحتوى على جغرافيا وتضاريس واسرار الاستعمال . صادفني انذار : « يجب عدم استخدام المبيدات والغازات عند تنظيف هذا الجهاز لانها تشوه منظره » ... وضعت الرشاش جانبا ، واصلت قضم الخبز ، مستلقيا ، أفكر فى أصوات احشائي واحشاء الجهاز هذه التى لا أفهم منها شيئا .

عادت عيناى تحمقان فى رقعة المؤشر . الآن فهمت معنى الانذار : لقد فقد جهازى بريقه ، تشوهت الواجهة أكثر مما توقعت . أصبح الجهاز يبدو وكأنه من مخلفات جيل فات . هتفت : الصرصار ولا الدمار - ترجيعا لصدى هتاف قديم لا يزال يعيش فى ذاكرة رأسي : الصرصار ولا الدمار .

بعد توقف قصير عن الهاتف ، تأملت رقعة المؤشر ، أبصرت صرصارا ينطلق من ركن ثم يدور في الركن المقابل ، لينطلق مرة أخرى عائدا الى قاعدة انطلاقه . قلت : هكذا يجب أن تكون الذاكرة ...

ثم استأنفت الصراخ : أصبحت مثل سلاح الحمير .. فلا سمعت صوتها ولا سلم الجهاز ..

الصراصير ما زالت على قيد الحياة .

(4)

بعد ذلك اليوم الذى باغتني فيه الصرصار - ، أصبحت امتلك الفرصة لأتأمل هيئته عن كثب ، وراء الحجاب الزجاجي على رقعة المؤشر . حتى الصرصار يبدو قد تمكن من خفض سرعته فى العدو من ركن الرقعة الى ركنها الآخر . تمكنت من ضبط أعصابي وأنا أتأمل الصرصار . لا يمكن أن أصف ذلك بالتعايش السامي مع الصراصير ، ولا أخطئ لو قلت انني دخلت فى حرب باردة معها : من جهتي ، كنت أتحين الفرصة التى يقترب فيها من المؤشر لأضعه فى كمامة بين المؤشر والرقعة . لكن هذين الهوائيين المثبتين فى رأسه ، حساسان لحد مدهش ، اذ سرعان ما يلتقطان اشارة الخطر المداهم فيسارع الصرصار الى الفرار رغم ملاحقائي المستميتة ، وقد خطر لى ذات لحظة أن أحاول احصاء الصراصير التى استوطنت فى كنف جهازى ، لكن اذا استبعدت فارق السن ، بين الصراصير اليافعة ، وتلك التى أصبحت فى طور الشباب أو الحضانة ... فلا تكاد تلاحظ علامة فارقة بينها . الصراصير ليس لها أسماء ، لكن حدث لحظة أنني تركت المؤشر واقفا فى مكان ما من الرقعة ، على سبيل السهو ، وحينما انتبهت من سهوى أبصرت بعين اليمنى صرصارا متمددا على طول المؤشر ساكنا لا يريم ... فتحت عيني اليسرى فلاحظت قرني استشعار الصرصار المتمدد .. قد تمدا بدورهما .. كانا على درجة من طول حتى أن المساحة المتبقية من الرقعة لم تسعهما ، فعادا معقوفين من سقف الرقعة .

هنا راودتنى عن عيني ذاكرة التصنت .

راودتنى لاسباب معقولة ، ولم تراونى هكذا عبثا :

- قرنا استشعار الصرصار هوائيان من طراز فريد . هذان الهوائيان الحساسان لاضعف شعاع وصوت ولاتفه ظاهرة .. لا شك أنهما سيعينان

جهاز الاستقبال على التقاط أضعف بث مهما كان نائيا أو مشوشا واينما كان مصدره .

أسرعت يدي فأدارت مفتاح الصوت الى منتهاه . غمرني الدوار العكسي في اتجاه مملكة الصوت : استقرت ذاكرتي في الاذن الوسطى ، ثم ابتدأت التصنت ...

شعرت بصوت حبات العرق تتفصد من جبيني ، انه جهد مضمّن حقا .

رجعت من تصنتي الواهم فوجدتني نائما !! لا أدري ، هل هي سنة نوم أو سبات طويل . عدت الى المؤشر فتأكدت أن الصرصار نام بدوره وامتد على طول المؤشر . ربما كان منبطحا وليس نائما مثلي . لكنني حين حركت المؤشر لم يستيقظ ولم يهرب كعادته رغم قرني استشعاره .

هذا غريب !! حاولت ايقاظ الصرصار ، أسرعت في تحريك المؤشر على الرقعة ، من أقصاها الى أقصاها ، لكن الصرصار بقي متمددا لا يريم . كدت أن أتأكد بأن الصرصار قد لفظ انفاسه الاخيرة ومات . هذا شيء . فكرت في وسيلة لاجراج جثمان الصرصار . أعياني التفكير واستعصت الوسائل . عادت عياني الى المؤشر فلم أجد للصرصار أثرا !! هذا شيء محير .

استغرقت في حيرتي ... ولم أكن أدري كم ستطول هذه الحيرة لو لم يضع لها حدا صرصار لمحتة يحبو هذه المرة على الواجهة الزجاجية . لم يعطني الصرصار بقاءه ، كما فعل في الازمنة الماضية ، هذه المرة واجهني خلف اللوح الزجاجي بتكوينه السفلي ، بصدرة وبطنه وبقيّة أعضائه ... حتى الصراصير انعدم منها الحياء والحشمة ، واجهة الصرصار هذه طرحت على سؤالها لم يخطر لي من قبل : هل هذا ذكر أم أنثى ... راحت عياني تدققان في أعضائه . ازداد الامر تعقيدا حين لم ألمح أثرا لاي عضو من أعضائه السرية . حتى الصرصار يحرص على اخفاء هذه الاعضاء ... ولم يكن بوسع معرفتي البسيطة لعالم الصراصير حتى التأكد من هوية هذا الصرصار : هل هو نفس ذلك الصرصار الجريء الذي خدعني بمكره وتنكره ، حينما كان متمددا على طول المؤشر ، ويتظاهر بالموت ؟ ... لم يبق لي من تبرير سوى أن الصرصار لا اسم له .

خطر لى وأنا أتأمل الجزء الاقبح من هذا الصرصار القبيح .. أن أتقرز .. لكننى عدلت عن التقرز .. ذلك الزمن الذى أوشكت فيه أن أتقياً أحشائى من رؤية صرصار قد ولى ... تداعيت لأقارن بلن الصرصار والجرادة .. أنا لا أفهم فى التشريح ، لكن من ناحية ذوقية محضة ، أدركت أن الفرق بينهما طفيف ومضحك ومثير للحقد والشفقة : فالناس عندنا لا يتقرزون من الجراد ، بل يسارعون الى اكله واقامة الولائم باحمه ، وعندما يحل موسم الجراد ، فعلى الرغم من تشاؤم الفلاحين منه ، لكنهم سرعان ما يهرعون الى اصطياده والتلذذ بأكله ، وفى المواسم التى تكون فيها اسراب الجراد كافية للتجارة والربح السريع ، فإن الناس بعد أن يتشاءموا ، يصلون على النبى ، ثم يتفاءلون ويقومون ببيعه لسكان المدن ... ورغم هذه الفروق انتافهة بين الجراد ذى الاجنحة القوية ، والصراصير التى فقدت قدرتها على الطيران لاسباب قد تعود الى كسل مجهول فى اجنحتها ، فإن الناس لا يحبون التفكير بهذه الطريقة .

اعترانى الكسل أنا الآخر .. منذ زمن طويل نسيت ذاكرتى مرمية فى مرمى عيني . لم أحرك المؤشر منذ أن تمدد عليه الصرصار وتظاهر بالموت . حاولت أن أحرك عقيرتى بأغنية ذلك المغنى القديم لكن السهو غمرنى .

أيقظني من سهوى صرصار لمحتة يتسلل الى الجهاز ، ثم لم يلبث أن تسلل خارجا من الجهاز . كأن الصرصار أصبح حيوانا اليفا .. أنا بدوري شعرت به حشرة أليفة .. حاول أن يتسلقني وئيدا ، كأن يجرجر جسمه بصعوبة بالغة ، حاولت أن أثير انتباهه مداعبا برأس هذا القلم الذى أكتب به ، فلم يكثرث للامر كما كان يفعل من قبل . جربت أن استفزّه ، فلمست قرني استشعاره ، لكنه لم يأبه بشئ . واصل طريقه عبر تضاريس جسدي ... الى جهة غير معروفة .

عدت الى عقيرتي لكى ترتفع بالغناء ، بأغنية ذلك المغنى التى سكنت جمجمتى منذ زمن طويل ... حاولت أن أتذكر الايقاع حاولت أن استدعى الى لسانى الكلمات .. لم أستطع .. لقد نسيت المغنى والايقاع والكلمات تماما .

سعيد المحروق

طرابلس المغرب -

عندما تتشابك خيوط النسيج

تساقطت ورقات الزمن فى صمت رهيب ثم غابت فى الأزل حاملة معها اشراقات الحزن والفرح ففي زمن العبور الصعب يصبح الوعى بالزمن هروبا من الزمن المخدول يلتقط أنفاسه الحبلى بالوجع المذبوح داخل أروقة المدن الموبوءة ، الموصومة بالعفن والقبح فتتعثر خطوات الارجل بين السيقان المتداخلة المتلاصقة . وسط هذا الزحام الأرعن اندس بجسمه اللاهث يدفعه دفعا لاجتياز المسافات الملعونة تحت قدميه .

الضجيج الصاخب يعوى من حوله بنباح الاصوات المبحوحة . المسكونة بالرعب فتتدهسر أنفاسه المنдлиية كالموج الصاخب ثم تفيض مرة أخرى وتمتد تعتصر جسده تحت شمس لاهبة مشحونة بالوهج . كان الوقت ضحى والفصل صيف ، الناس يتزاحمون على الأرصفة فى حركة لا تنقطع والشوارع مملأ بالسيارات والعربات أزيزها يصك أذنيه فيزداد اندفاعه كالهارب المخبول من مجهول لا يفقه كنهه تداخل نفسه الحسرة والغبن تجاه أولئك المحظوظين ممن بلغوا القصد فأطمأنوا وسكنوا الى آمالهم فى دعة ويسر غير عابئين بأمثاله وما يحيط حياتهم من كدر يصبغها بألوان بالغة القتامة ، مسرفة فى الحزن . هو واحد من هؤلاء المعذبين فى الارض قد توالى عليه المحن تباعا تقتنص خطواته .. خطوة .. خطوة . فما يكاد يقف على قدميه حتى تباغته ضربات القدر من كل جانب فلا يدري من أين مأتاها ولا يستطيع منها فكاكا ولكنه أبدا لم يفقد ذلك الخيط الذهبى الدقيق الذى يصله بالحياة . انه فى كل مرة يظل ممسكا به امساك الغريق بقطعة الخشب المنفصلة عن القارب القابع فى القاع يحاول جامدا بكل ما أوتى من ايمان المكافح أن يصل الى شاطئ الامان يدفعه دفعا ذلك الارهاص الغريزى للبقاء والاستمرار رغم الاوجاع والآلام واحباطات المصير .

اشتدت حرارة الشمس تلفح وجهه الاسمر بلهيبها فيتصابب العرق من جبينه العريض وينز براقا من خلال خصلات شعره الأشعث .

هو أربعيني متوسط الطول ، مكتمل الرجولة . أدم اللون يداخل بياض عينية احمرار ينم عن اعتداد بالذات وثقة تلقائية فى النفس يغمر الناظر اليه بجاذبية خاصة قد توحى فى البدن بعدائية ظاهرة نحو الآخرين ولكن سرعان ما تنقلب الى احساس خدر دافئ .

لم يكن يحمل من الملابس سوى سروال دجين أزرق وقميص مقلم مفتوح عن صدر قوى صلب .

مضى فى سيره لا يلوى على شئ ، مشئت الفكر مأخوذ الفؤاد بوجه أمه المرتسم قبالة عينيه على صفحات الممرات وعلى واجهات المحلات وعلى أعمدة الكهرباء وأسلاك الهاتف وعلى الوجوه الغادية الرائحة .
وجه أمه يرتسم قبالة عينيه يراه فى كل شئ .

لا يستطيع أن يمحوه من ذاكرته أبداً أو يفصل بينه وبين خطواته المتعشرة اللاهثة .

قد يترك ذقنه أياما وشهورا دون حلاقة فيغدو كصعاليك الغاب القدامى وقراصنة البحار .

يحاول عبثا ان يصحو فلا يباغته وجه امه يمزق شرايينه وتنتف شعيرات بدنه ، وجه امه الضارب فى اعماقه حتى النخاع يحاصره محاصرة الغريم غريمه المهزوم فيلهث هاربا من شارع لشارع يسابق لحظات الزمن الردىء يجر قدمه نحو ذلك المجهول الآتى ، يتراجع فجأة الى الوراء ، سيارة رمادية صغيرة تواجهه كالقضاء تلف حوله لفتين او ثلاث فيتوقع منكفاً على ذاته كجرذ صغير ... عيناه نزوغان ووجهه يربد فيفغر فاه .. صاحبة السيارة تطل عليه باسمه كالدهوة عند اخضرار الغسق .. وجه امه يقف حائلا بينه وبين الشجر الباسم فيرتد على نفسه ويقع على الارض ، يد حانية تربت على كتفه وانامل رخصة ترتب خصلات شعره المتصلكة فوق جبينه .. تأخذ وجهه بين كفيها فتسافر نظراته المشدوهة تعبر شفثيها المشرقتين كانبلاج الفجر . انسجة الذاكرة تنقش غشاوتها المغلفة بأردية الوهم والاندثار فيرفرف وشاح الانعتاق ويغزل النور المخضر خيوط الصبح الآتى ، تأخذ يده المرتعشة بداخل كفها وتمضى به نحو باب السيارة المفتوح ، تغلق الباب وتستقر بجانبه وراء المقود تضغط على الزر تحت رجلها ... فتنساب السيارة بهدوء .

اشياء كثيرة تلح على الذهن .. تصر على البوح تتنازعها ضوابط البعث والموت فتتشاكل كمزيج من ألوان الطيف وصراع فظيع كالجidal العقيم يقوم ضمنا داخل تركيبة الوعي المفككة فيصير التجديف العكسي اطروحة الفكرة الحاضرة وهى تداور وتراود قبس الاشعاع الحقيقى للانفكاك من حصار الوجود القديم الطافح ابدا لم يظل وجه امه قدره المحتوم وقضية عمره . والانثى التى بجانبه شهية كبسمة الصبح .. ستار سميكة قاتم ينزل على عينيه يحيل الرؤيا الى اشباح تتراقص فى انهار مرعبة الحركات .. الاشباح سوداء كليل شتوى بلا نجوم .. تنشط الاشباح وتتكاثر ، تضرب من حوله حصارا مريرا ، تهاجم جسده كخلايا سرطانية خبيثة فيتغلغل الداء فيه بقوة وعناد وشراسة .

– اه يا ولدى ليتك ترحم نفسك وترحمنى افلا يشفى غليلك ما انا فيه من مرض ، وعذاب وتردى الى ارذل العمر ان الكاس التى تتجرعها حتى الشمالة لهى مرة مرارة العلقم .

– اجل .. انها امر من المرارة ، انها جرثومة فتاكة فما بشر بها مخمور ولا مجنون ولكنه فظيع هذا الذى انا فيه ، ليتنى استطيع اتلاف جسدك المريض هذا .. ليتنى استريح بل ليتنى اموت .. ليت العالم يندثر .

– جسدى عن اى شىء تتحدث يا ولدى وهذا الذى امامك لا يعدو ان يكون سوى رفات لجسد كان يوما ينبض بالحياة .. اه يا ولدى رحماك بحق الله انى اموت فى اللحظة الواحدة ألف مرة .

– اكرهك .. انا اكرهك لحد الموت .. لا تحاولى الاقتراب منى .. لا تمدى إلي يديك المدنستين بالاثام .. ليتوقع هذا الجسد اللعين فى بركة من القيح والدم وليتقاطر عليه الذباب وينهشه كقطعة قمامة . ان تلك الصورة القديمة المخزية وانت تبيعين هذا الجسد اللعين فى سوق الخساسة والابتذال ما تزال ماثلة امام ناظرى تحطم لحظات الامن فى حياتى فكيف امحوها من ذاكرتى .. كيف انسها كيف أغيبها الى الابد .. ؟!

غطى وجهه بكلتا يديه وانحدر فى بكاء شجى ، دموعه على خديه تنهمر فى تدفق عارم . اه ما اصعب ان تحفر الدموع اخاديد الاخران المترعة بشبق الغيظ الاسود يقتل كل احساس بالامان فلا يبقى فى النفس سوى الهزيمة الكأداء

تدحر الكيان بافرازات الوجع الدفين فلا تدرك الصحوه عمق الوجدان ابدا بل تظل العتمة هي البدء والانتهاى ترسل الهالات الداكنة فى صلف زنيم تسد معابر الانفراج ، وتطفى اشعاعات الضوء والانعتاق وبين ارتعاشات الاضاءة تتمدد الماساة المروعة ماساة وجود عابث وعمر مهدور فيختنق صدره المكلوم .. يشتد الضغط الداخلى وينفجر كالبركان مزجرا مغيظا :

- اللعنة ايتها القبيحة الفاجرة ، اللعنة على العالم كله .

- ارتعدت فرائص الجالسة بجانبه وخافت ان يكون مجنونا احمق او مخبولا ، فعرجت بالسيارة جانبا ثم اوقفتها على حافة الطريق . ظلت يداها على المقود تستجمع شتات فكرها المصدوم والراس يخنقه الصداغ بينما المحموم يهذى ولكن بفتور شديد كالهدوء الذى يتبع الاعصار . التفت اليها مبعثر النظرات كمن ادركته اليقظة بعد كابوس طويل ، مخيف . ثم لم يلبث ان خفض بصره وانكمش فى مكانه فخاطبته قائلة :

- هل تعاني من هذه النوبات الهستيرية منذ زمن طويل ؟

- من انت ؟ .. ما الذى حملك على وضعى بداخل بيئارتك والى اين تريد ان تذهب المضى ؟

- لا يهم ان تعرف من أنا كما لا يهم ان اعرف من انت كلانا نقطتان فى آخر السطر ويبدو لى ان مأساتك رهيبة وجرحك عميق الغور اما انا فحياتى مهزلة قبيحة احيائها من احمص قدمى حتى قمة راسى وها نحن التقينا ولا تلتقى المأساة بالملهاة الا فى مفترق الطرق الملتوية ، انا درست الفلسفة ودلم النفس فى الجامعة واعرف ان القدر وحده بلقائنا الصدفة قد صنع لحظة التبرير الفعلية لضمون الاستقطاب بين الابعاد المتضادة .

- انا لا افهم شيئا من حديثك الغامض وان كنت انت قد درست الفلسفة فاننا لم اكمل تعليمى وفشلت فى اول الطريق .

- عظيم ! .. استجابتك السريعة للحوار تشجعنى مبدئيا على الكلام فهل لك ان تتحدث الي ؟

– ليس قبل ان اعرف من تكونين ؟

– حسنا .. باختصار شديد انا رقم من ملايين الارقام المحفوظة فى سجل المدينة ولدت لأبوين من أسرة ميسورة اعطيانى كل شىء دون قيد او شرط فتعلمت واشتغلت وسافرت واحببت وفشلت فى حبى .. حملت سفاحا واجهضت .. تزوجت وطلقت .. اول سيجارة وضعتها بين شفتائى قادتنى لشرب كأس الخمر الاولى انتبهت وانا مخمورة الى الدائرة التى اتواجد فيها فوجدت والدي وأقربائى وأصدقائى ومعارفى نساء ورجالا وهم من أهل الطبقة العليا فى المجتمع يمططون الشفاه بالضحكات السمجة والمدام هو الحاكم بين الجميع وسيد الجميع فاعجبتنى اللعبة .. استمرأت الاستمرار فيها الى أن ارهقنى الجرى المحموم وعرفت أنني احيا فى حلقة مفرغة كالناعورة التى تدور فى فراغ ولكن قد فات الاوان لا استطيع مهما حاولت ايقاف هذا النزيف المدمر . واليوم كنت ذاهبة لاحدى المغازات التجارية بقصد اقتناء قوارير الخمر لاقامة حفل عيد ميلادى الثامن والعشرين فرأيتك تتارجح فى الطريق ، ظننتك مخمورا ففكرت فى انتشالك .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ابتسمت فى وجهه بسداجة كانها عذراء تلتقى فارسها الاول ثم وضعت سيجارة بين شفتيها القرمزيتين واشعلتها بقداحة اتوماتيكية ، لبث برهة ينظر اليها فبدت عضلات وجهه تنقلص تدريجيا وطفولته الهاربة تعود من هجرتها الابدية لترسم فى الذاكرة من جديد الخيوط البدائية لنسيج عمره . كان طفلا فى العاشرة عندما امسك اول خيط ، كان فى عينيه ذكاء وقاد ينم عن قدرة ذهنية متحفزة للبحث والاستقصاء فى ما يحيط بحياته من احداث وملابس اشكالية لا يفقهها فكره الصغير ولكن باحساسه الفطرى كان دائم التساؤل والحيرة . اخبرته والدته ان اباه قد مات على يد المستعمر اثناء حرب التحرير قبل ان يولد وانها تشقى من أجله كثيرا لتوفر له العيش الهنىء وذات ليلة من ليالى ذلك الزمن الماضى أحس بوالدته تتسلل من السرير الذى ينامان عليه سويا ثم اهالت عليه الغطاء وخرجت من الغرفة وسمع صرير باب المنزل وخطواتها الرتيبة تبتعد شيئا فشيئا فى سكون الليل البهيم . فى تلك الليلة لم يجد النوم اليه سبيلا وظل يقظا حتى الفجر عندما احس بها تنظم اليه وتندس تحت الغطاء من جديد وتحويه بين احضانها . ظل هذا ديدنها ليال

متتالية فلم يجرء على مفاتحتها فى الامر كان هنالك شيئا خفيا يدور فى نفسه يحول بينه وبين الاقدام ولكنه قرر ذات ليلة ملاحقتها والوقوف على حقيقة خروجها الليلي فى الظلمة والناس نيام .. مشى وراءها وهى تسترق الخطى حتى دخلت الى احد المنازل ظل يدور جيئة وذهابا حول المنزل الذى كانت نوافذه مضاءة فسمع ضجيجا وضحكات عالية تنبعث من نافذة احدى الغرف . لم يجد عناء كبيرا فى الصعود اليها فهى لم تكن كثيرة الارتفاع كما ان الجدار الحجرى لم يكن مطليا بالكلس . عندما اطل براسه الصغير من خلال الزجاج اصطدمت عيناه بمجموعة من النساء والرجال وهم عراة ! وكانت امه من بينهم . ارتد الى الوراء ملتاغا وصرخ بملى صوته .. تلقتة بين ذراعيها وهمست :

- يجب ان آخذك الى الطبيب فهذه النوبات شديدة الخطر على حياتك .

قهقهه عاليا وقد عاد اليه الوعي بالزمن الحاضر فقال لها :

- لا عليك يا فتاتى انا بخير قويا كالحصان انطلقى بالسيارة ، سوف نحتفل معا بعيد الميلاد ...

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

بقلم : حليلة مصباح

صورة البطل في « حدث أبو هريرة قال » (*)

إن شخصية أبي هريرة في « حدث أبو هريرة قال » باعتبارها بطلا هي مصدر من مصادر المتعة والتشويق في الرواية وهي تعبر لحد بعيد عن أبعاد الشخصية الانسانية في أجل مظاهرها ، وإن كانت أقرب الى الاسطورة أو « الميثولوجيا » منها الى الحقيقة والواقع . هي شخصية فذة معبرة موحية ومغرية للقارئ الى حد بعيد نحتها صاحبها « المسعدي » نحتا وجعلها معمارا فنيا قائما في عالمه الروائي المتميز القائم على الحديث والاسناد .

★ ★ ★

شخصية أبي هريرة كما يراها صاحبها هي صدى لشخصية كل واحد منا ، وهي أقرب الى أنفسنا من أنفسنا اذا حاولنا أن نسبر أغوارها واذا حاولنا أن نقرب منها أكثر من المعتاد .

★ ★ ★

هي شخصية نموذجية يختلط فيها الوجودي بالصوفي ، تعكس مجموعة من صفات الشخصية الانسانية عامة اذ نجد فيها بعض جوانب من الشخصيات العادية التي نلتقي بها كل يوم ، كما نجد بعض الجوانب الغريبة والغامضة والتي قد تخرج عن نطاق المعقول والمحدود .

★ ★ ★

هي شخصية نابضة بأتم معنى الكلمة ، تبدأ بمعاشيتها والسير معها منذ أول وهلة نلتقي فيها معها ، فنشعر بشعورها ونحس بأحاسيسها حتى تغدو وكأنها صدى لنفس كل واحد منا .

★ ★ ★

(*) محمود المسعدي : « حدث أبو هريرة قال ... » دار الجنوب للنشر ، تونس 1979 .

وهى شخصية نامية وعميقة وليست مسطحة ، فتتكشف لنا تدريجيا عبر المسار القصصي من خلال ما يشبه الحدث لأن شخصية أبي هريرة لا تتفاعل مع الاحداث لتجعل منها هذه الاحداث بطلا بل هى تطفئ على الحدث نفسه وتظل قائمة مستبدة عملاقة جبارة فتتخطى المحدود وتخرج عن دائرة الزمان والمكان وتأخذ حظا وافرا فى حضورها وغيابها وهى تتحدى الواقع وتتجاوزه ، وهى حية أبدا عبر الذاكرة وفى طي الحديث المتواتر .

★ ★ ★

شخصية أبي هريرة ينحتها صاحبها نحتا غريبا مما يجعل روايته تتميز عن الرواية المتعارف عليها . فهو يجعلها قوام روايته وركيزتها حتى فى غيابها ، فجعل الاحاديث الواردة فى الكتاب جاءت تحكى قصة أبي هريرة بعد مماته . وقصة أبي هريرة تبدأ بفجر يوم جديد وبعث جديد يبعث فيه أبو هريرة من - بين الاموات لتنتهى ببعث ثان يرتحل فيه أبو هريرة الى عالم آخر عالم أرحب وأفسح . **الا أن هذه المسيرة الوجودية التى يعيشها أبو هريرة لا تشكل حدثا متسلسلا ولا بناء قائما تتداخل فيه الاحداث بالشخصيات ، ولكنها تأتي على شاكلة جملة من الاحاديث المعتمدة على الاسناد وتواتر الخبر ، هى عبارة عن شهادات يدلي بها أصحابها ممن عرفوا أو ألتقوا بأبي هريرة أو بمن خالطه ، الروايات فى مجملها لا تتضارب ولا تتناقض بل تجيء متممة لبعضها البعض ، ولا يكرر بعضها البعض أحيانا الا ليثبت الواحد منها الآخر ، ووراء كل هذا يختفي الكاتب الذى يسعى الى أن يجعلها تفتتح على عوالم مختلفة من عوالم أبي هريرة وأن نقف فى كل مرة على جانب من جوانب شخصيته ، وما أن نفرغ من الكتاب حتى تكتمل فى أذهاننا صورة أبي هريرة لتخلف فى أفواهنا طعما لا ينتفى مذاقه وصوتا لا يفتأ يرن ويتردد فى مسامعنا وطيفا يتلبسنا فى كل حالاتنا أو أحوالنا .**

★ ★ ★

ملامح شخصية أبي هريرة :

لم ينحت المسعدي لشخصية أبي هريرة من خلال الصورة ولكنه نحتها من خلال الكلمة المعبرة والموحية ، وهو لم يصور لنا هذه الشخصية من الخارج بقدر ما صورها من الداخل ، فكان هذا الداخل هو الذى يوحى بأبعادها وما الخارج الا انعكاس للداخل أى للذات .

من أهم الوسائل التي اعتمدها الكاتب في تشكيل صورة بطله السرد والوصف والتشبيه والصور البلاغية والحوار .

ملامح هذه الشخصية جاءت باهتة من الخارج كما أراد لها صاحبها أن تكون ، فنحن لا نعرف من مظهر أبي هريرة الخارجي إلا ما يوحى به اسمه وآفاق الصحراء التي يضرب بجذوره في أعماقها . أما دقائق تفاصيل وجهه فنحن لا نعرف عنها شيئا وكان الكاتب يتهيب الاقتراب منه ، فأبو هريرة يضحك ثم يقول ويقول ثم يضحك وقد ينزل به من الفرح « كنوبة الحمى » . كما يضحك ضحكا كثيرا عندما يكون سكرانا . أما صوته فهو « كصدى غيب بعيد » وكثيرا ما يكون أبو هريرة كالمهموم أو كـ « الزاهب البال » شاحب الوجه نحيله ، ويسمع وهو يغني و « كأنه النار انقادت » . أما عينه فهي « من أوضح وأضوى وأحسن » ما رأت ظلمة عينا . حركته معبرة موحية فقد نراه ينتقل في « اسراع المهموم الملمة أشغاله » كما يقف « وقفة المعتبر » أمام المواقف المعتبرة .

هذه الملامح كلها تحيلنا على الداخل ولا تجعلنا نكون صورة جلية لأبي هريرة من الخارج . <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

★ ★ ★

هذه الشخصية نلتقطها عادة في حالة حزنها وأسائها وفي حالة غضبها وثورتها كما هو الحال في حالة انشراحها وحالة حيرتها ، في كل مرة تبدو معبرة بصدق عما يجيش في داخلها كل ذلك تبعا للحالة التي يوجد عليها أبو هريرة وتبعا للتجربة الوجودية التي يخوضها ففي التجربة الصوفية كان - وكما تحدثنا عنه ظلمة - لا يكلم أحدا ولا يسأل عن أحد ويكثر من الجلوس في مقبرة الدير .

أما في حالة حزنه وأسائه فكان يطرق « وهو ساكن كأنه النوء يتمخض رعدا » وهو يغيم ويحول كسماء خريف ، ويتجمع حتى يصبح مستحيلا ويغدو في حالة جموده كالصخرة « لا يشكو ولا يستطيع اليه سبيلا ولا يبكي » أو « كالممتلىء يكاد لا ينفجر » . أما دموعه فقد تنزل وتنزل مدرارا فهي « كرجع الموج عن الصخر » . وهي أيضا « كقطر الندى » .

وكان أبو هريرة يجلس ويأكل ويغني ، وكان كلما أتى طعاما « أخذه خشوع غريب » كما كان يتطهر للطعام « كتطهره للاحرام » . وعندما يشرب يغيب بصره « وكأنما جره النبيذ الى غيب أحشائه » .

★ ★ ★

كان أبو هريرة يعبر عن داخله بواسطة الحركة والفعل ومن خلال الكلام ، فحركته ثقيلة موحية ومعبرة ، وهى تسبق الكلام لتنبيه به أو تعقبه لتعبر عن مدى صدقه ، فهو يحرك رأسه ويقول وهو يقول ويضحك وقد يطرق قبل أن يتكلم « كالمصيحخ الى ليلة من ليالى الصيف هادئة قمراء خالية » . وقد تتعثر مشيته لتعبر عن مدى الحيرة التى تتملكه والسؤال الممض الذى يطلب جوابه : « أيهما أصدق وجودا الله أم الشيطان » .

★ ★ ★

ويهمس خروجه من تجربة الجماعة « كالمندف انقطعت أنفاسه : دعوني يا أوضع من وهاد يا أضعف من عبادي يا أحقر من بعوض يا بني الانسان » .

ويغدو أبو هريرة فى أحلك حالته « فى خفة غريبة كأنه الروح » وقد ذهب عنه الحس ، وقد كان يهذي فيقول : « فرعون أم الله » . ويخرج أبو هريرة « مشرقا ويضرب فى الارض زمنا لترده بعض قوافل الاعراب كثير الغبار فأتى العصا » .

أو ليس أبو هريرة هو القائل : « وكذلك ذهبت ساعتى فى ساعتى وعزمتى فى عزمتى كالنور يأكل النور أو كالشمع يضيء فيحترق ، حتى ظننت أن الناس لا يجدون لى أثرا اذا مت »

★ ★ ★

أبعاد شخصية أبي هريرة :

شخصية أبى هريرة هى شخصية أقرب الى الرمز فى مدلولاتها ولكنها وجودية فى أبعادها . . . أرادت أن تحقق وجودها بالمعاشة والتجربة لتكتمل ذاتها . مما حدا بها الى خوض غمار العديد من التجارب ومعاشتها ،

فيعيش أبو هريرة تجربة الحس والشك كما يعيش تجربة المرض والفناء
محاولا في كل مرة أن يكتشف نفسه من جديد ليقف على أبعاد حريته
كاملة .

★ ★ ★

كان مولد أبي هريرة في صبيحة أحد الايام انفتحت فيه نفسه على لذة
الوجود وكانت تجربة الحس ، فرط بسببها في مبيته وزوجته وأقبل
على المجهول في مغامرة وجودية لا يدري عواقبها .

عاش أبو هريرة تجربته هذه بكل نبض في عروقه وبكل جوارحه
وكيانه . . أحب اللذة بالرغم من كونه لم يتمكن من الوقوف على معناها ، الا
أن هذا لم يمنعه من إدراك أن اللذة لا تغلب وهو في أرقى تجربته الصوفية .

★ ★ ★

وتبلغ التجربة أقصاها فينفضها أبو هريرة عنه بعد أن أحس بوطأتها ،
فيحمله الحنين الى الفراق والهرب مما جعله لا يتلاءم ووجوده ومما حدا به الى
أن ينصرف الى ما لا يخطر ببال ومما يجعله يبحث عن معنى أو معاني
الاشياء ويتساءل في حيرة عن معنى النار والصاعقة وظلمات القبر وانهيار
الصخور في الجبال والرياح العاصفات ، وتقوده هذه الحيرة وهذا التساؤل
الى الشك . . الشك في ذاته وفي وجوده والوجود الذي يلفه ، تجربة الشك
هذه جعلته يتوق الى الروح فلا يدركها ويتطلع الى السماء من دون أن يبلغها
مما جعله يبحث عن مستقر له بين الارض والسماء ويود لو أنه علق بينهما
أو جلس « على قمة جبل قد طلقتة الارض فطار » .

★ ★ ★

نقد بلغت التجربة الوجودية بأبي هريرة درجة انقلبت فيها المفاهيم
والاشياء فأصبحت الحياة عنده تساوي العدم . . والعلة أعفى من الصحة
ويجد في علته ما لم يجده في صحته وتمت له بها حياته بل أصبح يخشى
أن تعاوده الصحة والاستقامة فيموت .

هذه الحالة اليائسة هي التي دفعت به الى البحث عن السبيل الى تعلم ما ينسبه فيظل بمن ظلمة في بداية تجربته معها ان تعلمه « الحمل والولادة وسر توارث الارواح » .

★ ★ ★

ان تجارب أبي هريرة بالرغم من اغراقها في الفردية والذاتية ما كانت لتمنعه من خوض تجربة من نوع جديد : تجربته مع الجماعة ، هذه التجربة التي عاش فيها أبو هريرة مع الناس ثلاثين سنة لم ير في « واحدة منها الا ذئبا ينهش ذئبا أو صاديا يشرب فيشتد صده » .

وما خروجه للناس الا لضيق محبس النفس فقد كره القصر والحصر فطلب الكثرة واشتاق العدد وعاش بين الناس ناصحا ومرشدا يستعز فيهم العزة والهمم داعيا اياهم الى الاخوة والسلام والى انتشيد البناء ، وسرعان ما يخيب المسعى فيهره اليأس ويمسى ولا يصبح ، ويخرج من هذه التجربة مخذولا ، فيهم على وجهه يبحث له عن مستقر من دون أن يهتدي اليه ويغدو كالماء يجري « من دون أن يعترض سبيله معترض » .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

★ ★ ★

ويتيه أبو هريرة في حياته ويظل السبيل ويبحث عن معنى جديد لجوهر كيانه وحقيقة ذاته فينتهي الى البعث الآخر ويستدعي صديقه أبا المدائن ويخرج معه في رحلة يبغى الغروب وهو لا يأسف من الدنيا الا على الشمس ولونها « كالدّم المهرق » .

في هذا اللقاء وفي هذه الفسحة عند الغروب يتواتر الحديث ، حديث الانس والمجون ، وتهجم ظلمة الليل شيئا فشيئا على نور النهار فتفنيه ، وتحس كأن أبا هريرة يطلب النهاية ، من أجل أن يخفف عبء الطريق على صديقه بدأ يسليه بحكاياته الطريفة المسلية ثم لا يلبث أن يغيب في ظلمة الليل ، ولا تمضي هنيهة حتى يسمع أبو المدائن « صيحة تشبه صيحة الفرح تملأ الوادي تقشعر لها الأبدان » .

★ ★ ★

بالإضافة الى كل هذا كان أبو هريرة غريبا في أطواره بل قد يحتار المرء في تفسير شخصيته وتحليلها ، ألم يحدثنا حرب ابن سليمان : « إذ مرت بنا جنازة فقمنا لها فاذا أبو هريرة قد أرسل ضحكة آذن بها الناس جميعا فأخذته من طرف ثوبه فاذا هو لا يتمالك عنها فهي تهزه هزا » .

أو لم يخرج أبو هريرة ليالي عدة يهيم على وجهه وهو يتوسل الى كل عابر طريق يلقاه أن يلطمه لطمه تذهب به فتعيبه ؟

أو لم يذكر أبو هريرة نفسه كيف التقى وأبا المدائن عند حباب المغنية عندما دخل عليهما كرها وأحبا أن يلتقيا عليها وأمسك أبو هريرة صديقه عنوة وحمله عليها وأخذ معه الفخذ والفم والعينين ؟

★ ★ ★

تلك هي حياة أبي هريرة وأطوارها وتلك هي شخصيته . وتلك هي مسيرته المكمل لذاته المشكلة لبنائها المعماري الشامخ . أبداع صاحبها في تشكيلها أحسن ابداع بالايحاء والرمز تارة والتشبيه والمجاز تارة أخرى .

<http://ArchiveBetaSakhrit.com>

شخصية جاءت عارية مفضوحة الى حد الشبق وصريحة جريئة الى حد الفضاحة ، الا أنها صادقة في كل أطوارها ، ولو لم نتبع مشارب حياتها لما وقفنا لها على أثر . شخصية عظيمة عظم الحياة نفسها .

عبد الحميد عبد الواحد

المراجع :

د . محمد يوسف نجم : **فن القصة** ، سلسلة الفنون الادبية 2 ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .

الفكر العربي المعاصر (عدد خاص) ، وجه البطل في الرواية المعاصرة ، عدد 34 ، مركز الانماء القومي ، بيروت 1985 .

Roland Barthes : « Introduction à l'analyse structurale des récits », in **Communications** n° 8, Paris 1966.

Vladimir Propp. : **Morphologie du conte**, Traduction Marguerite Derrida. Ed. Seuil, Paris 1970.

قصة : قسطنطين كفاي

ترجمة : أبو بكر العيادي

في وضح النهار

كنت جالسا ذات ليلة بعد العشاء في كازينو « سان ستيفانو » بالرملة ، فقد دعاني صديقي الاسكندر أ . الذي يسكن الكازينو وصديقا شابا ودودا الى تناول العشاء معه . لم تكن هناك سهرة موسيقية والحاضرون قلة فجلسنا بكامل حريتنا .

تحدثنا في أمور كثيرة ، وبما أننا لم نكن أغنياء فقد تطرقنا للحديث عن المال وعن الاستقلال الذي يوفره والمتع التي يولدها .

قال أحد صديقي انه يريد أن يكسب ثلاثة ملايين من الفرنكات ، وأخذ يصف كل ما ينوي أن يفعل بها وخاصة ما سوف يقلع عن فعله اذا قدر له أن يمتلك ذلك المبلغ .

قلت بدوري : إن ايرادا سنويا قدره عشرون ألف فرنك يكفيني .

أما الاسكندر أ . فقال :

— لو شئت لصرت الآن مليونيرا . ولكني لم أجرو .

بدت لنا هذه الكلمات غريبة ، فنحن نعرف جيدا حياة صديقنا أ . ولا نذكر اطلاقا أن فرصة ما أتاحت له لكي يصبح مليونيرا ، لذلك ظننا أنه لم يكن جادا فيما يقول أو أن مزحة ما سوف تعقب ذلك . ولكن وجه صديقنا ظل رصينا حينئذ طلبنا منه أن يبين لنا ما تخفيه جملة الغامضة .

تردد قليلا . ثم قال :

— لو كنت برفقة جماعة أخرى ، كتلك التي تضم أناسا « متقدمين » كما يقال ، لما فسرت قولي لأنهم لا شك سوف يسخرون مني ولكننا اليوم في

مستوى غير ذاك الذى يدعيه أولئك « المتقدمون » ، فقد أتممنا تطورنا الفكرى بحيث صرنا من جديد بسطاء ، بسطاء دونما جهل . لقد أكملنا الدورة كلها وعدنا الى نقطة البداية . أما الآخرون فظلوا فى منتصف الطريق ، لا يعلمون أين ينتهى ولا يدركون موضعهم .

هذه الكلمات لم تفاجئنا ، فلكل واحد منا فكرة شاملة عن نفسه وعن صديقيه . أردف الاسكندر :

– أجل ! لو جرؤت لكنت مليونيرا ، ولكنى خفت ، حدث ذلك منذ عشر سنين . لم يكن لى فى ذلك الوقت مال كثير – مثل اليوم – وبالأحرى لم يكن لى مال اطلاقا ، ولكنى كنت بطريقة أو بأخرى أتقدم ، ولم أكن أشعر بالضيق كنت أقطن منزلا بشارع شريف باشا ، تملكه أرملة ايطالية ، كان لى ثلاث غرف مؤثثة تائثا مقبولا ، وخادم خاص بالاضافة الى خدمات صاحبة المنزل .

ذات مساء ذهبت الى « روسينى » وبعد ان نلت نصيبي من الحماقات قررت العودة قبل موعد النوم لأنه كان يجب علي أن أنهض من الغد باكرا للقيام برحلة الى « ابوقير » كنت مدعوا إليها .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ولما وصلت أخذت أذرع الغرفة طولا وعرضا كالعادة وأنا أفكر فى أحداث اليوم . وبما أنها كانت خالية من أية أهمية فقد غلبنى النعاس فنمت .

نمت ساعة ونصفا أو ساعتين دون أن أحلم لأننى اذا كنت أذكر أننى استيقظت فى حدود الساعة الواحدة صباحا على ضجيج فى الشارع فاننى لا أذكر أننى حلمت ، عدت الى النوم فى حدود الواحدة والنصف ، حينئذ بدالى أن رجلا دخل غرفتى ، رجل متوسط القامة لا يتجاوز عمره أربعين عاما ، كان يرتدى ملابس سودا قديمة وقبعة من القش وفى يده اليسرى خاتم مرصع بزمردة كبيرة ، أثار استغرابي لانه يناقض لباسه كانت له لحية سوداء غزتها شعيرات بيض كثيرة ، وشىء غريب فى عينيه ، نظرات ساخرة وحزينة فى الآن نفسه ، ولكنه كان بصفة عامة شخصا عاديا جدا ، من أولئك الناس الذين تصادفهم كل يوم ، سألته عن حاجته ، فلم يجبنى فى الحين ، وظل دقائق ينظر الى نظرة متشككة أو متفحصة كأنما يريد أن يتأكد أنه لم يخطئ ، ثم قال بصوت فيه نوع من التواضع وحتى الذلة :

– أنت فقير ، أعلم ذلك ، جئت أمنحك وسيلة لكي تصبح غنيا . أعرف مكانا قرب « مسلة بومباي » يحتوى على كنز عظيم مخفى ، أنا لا أريد من هذا الكنز سوى علبة حديدية صغيرة توجد فى الأعماق . كل ما تبقى سوف يكون لك .

سألته :

– ومم يتكون هذا الكنز ؟

فقال لى :

– من قطع ذهبية ومن حجارة كريمة على وجه الخصوص ، هناك عشر علب أو اثنتا عشرة علبة من الذهب الخالص مملوءة جواهر ولآلىء ، وهناك أيضا فيما أظن – بدا كأنه يتذكر – يا قوت أزرق .

قلت فى نفسى : لماذا لا يذهب بنفسه اذن فينال ما يريد ، وما حاجته الى ، ولكنه سبق سؤالى :

– أدرك ما تفكر فيه ، أنت تتساءل : لماذا لا أذهب بنفسى فأخذ ما أريد ، هناك ما يمنعنى ولكنى لا أستطيع أن أقول لك ما هو ، هناك أشياء لا يمكن أن آتيها بنفسى .

حين قال « بنفسى » لاح بريق فى عينيه ، وفى لمح البصر عبرت وجهه عظمة رهيبة ولكنه سرعان ما استأنف كلامه بنبرته المتواضعة :

– وبذلك تسدى لى معروفا . أنا فى حاجة ماسة الى شخص ما وقد اخترتك أنت لاننى أريد لك الخير تعال غدا . سأنتظرك من الزوال حتى الساعة الرابعة فى « الميدان الصغير » ، فى المقهى المحاذى لسوق الحدادين .

على هذه الكلمات اختفى .

من الغد ، حينما أفقت لم أذكر فى البداية شيئا من الحلم ، وبعد أن غسلت وجهى وجلست لتناول فطور الصباح خطر ببالى وبدأ لى غريبا ، ودعوت فى سرى أن يكون حقيقة ثم نسيته .

قمت بالرحلة وتسليت كثيرا كان عددنا مرتفعاً ، كنا ثلاثين تقريباً ، رجلاً ونساءً ، فى بهجة نادرة . لن أضيف أكثر من هذا لأنه خارج عن موضوعنا .
هنا لاحظ صديقي د :

– لا جدوى من ذلك ، فأنا ، على الأقل ، على علم بما جرى اذ لم تخنى الذاكرة ، أنا أيضاً شاركت فى تلك الرحلة .
– كنت معنا ؟ لا أتذكر .
– أليست الرحلة التى نظمها ماركوس ج قبل أن ينتقل نهائياً الى انجلترا .

– بالضبط . تذكر اذن تلك الاوقات الممتعة التى قضيناها معا . الزمن الجميل ، الزمن الضائع ، سيان ! لنعد الى موضوع حديثنا ، قلت اذن : إننى عدت من الحفل مرهقا فى وقت متأخر . لم يكن أمامى إلا قليل من الوقت لأغير ثيابى وأتناول شيئاً من الطعام ، ثم أقصد عائلة صديقة حيث تقام سهرة للعب الورق .. بقيت ألعب حتى الساعة الثانية والنصف صباحاً ، وربحت مائة وخمسين فرنكاً وعدت فرحاً .. تمددت فى فراشى جفلاً وسرعان ما غلبنى النعاس والارهاق .

لم يكد النوم يكحل جفونى حتى حدث شئ غريب . رأيت نورا فى الغرفة فتعجبت كيف لم أطفئه حينما هممت بالنوم ، ولكنى لمحت رجلاً قادماً من آخر الغرفة – كانت غرفتى كبيرة – حيث الباب ، عرفته فى الحين . كان يرتدى الملابس السود نفسها ، وقبعة القش العتيقة ذاتها ، بدا غير راض حين قال لى :

– انتظرتك من الزوال حتى الرابعة فى المقهى ، لماذا لم تأت ؟ أعرض عليك ثروة ولا تقبل ، سأترقبك من جديد هذا اليوم فى المقهى بين الزوال والرابعة . لا تتأخر .

ثم اختفى مثل المرة السابقة .

أما أنا فقد استيقظت مذعوراً . كانت الغرفة مظلمة . أنرتها كان الحلم حقيقياً وحياً بشكل جعلنى أبقي مبهوراً ومرهقا ، لم أستطع أن أمنع نفسى من التأكد ان كان الباب لا يزال مغلقاً بالمفتاح ، كان الباب موصداً كالعادة ، كانت الساعة الحائطية تشير الى الثالثة والنصف ، لقد نمت عند الساعة الثالثة .

لا أخفى عليكما ، لا أشعر بالخجل حين أعترف أنى كنت فى غاية الارتباك لم أعد أجرو على اغماض عيني مخافة أن يأخذنى النوم فأرى من جديد زائرى العجيب جلست على كرسي ، وقد استبدبني التوتر ، فى حدود الساعة الخامسة بدأ النهار يطلع . فتحت النافذة ونظرت الى الشارع ، وهو يفيق شيئاً فشيئاً ، بعض الأبواب انفتحت ، باعة اللبن المبكرون مروا ، وكذلك أوائل عربات الخبازين . هدأني ضوء النهار قليلا ، فعدت الى فراشى ونمت حتى الساعة التاسعة .

حين أفقت بدأ الاحساس الذى تركته ذكرى اضطرابي الليلي يفقد كثيرا من توهجه ، بل إنني تعجبت كيف انفعلت ذلك الانفعال ، فكل انسان يرى كوابيس كثيرة أنا نفسي رأيت كثيرا من الكوابيس فى حياتي . وما رأيته لم يكن كابوسا باتم معنى الكلمة . صحيح أننى رأيت الحلم نفسه مرتين ، ولكن ماذا يعني ذلك ، ثم هل هناك ما يؤكد أننى رأيته مرتين ؟ ألا أكون قد حلمت أننى رأيت الرجل نفسه من قبل ؟ بحثت كثيرا فى ذاكرتي ثم تخليت عن هذه الفكرة المؤكد أننى رأيت هذا الحلم أول الباردة . وما وجه الغرابة حتى فى هذه الحالة ؟ يبدو أن الحلم الاول كان حيا وأثر في كثيرا بشكل جعلنى أراه مرة ثانية ، هنا صار منطقي الاستدلالى يفقد تماسكه ذلك أننى استغربت عدم احتفاظي بذكرى حلمي الأول ، فهو لم يجل بخلدى فى أية لحظة طوال اليوم الموالي ، اذا كنت أثناء الرحلة أو خلال السهرة أفكر فى شىء مغاير تماما للحلم ، فماذا يعني ذلك ، ألا يحدث غالبا أن نحلم بأشخاص لم نرهم منذ سنوات عديدة ولم نعد نفكر فيهم اطلاقا منذ مدة طويلة ؟ يبدو أن ذكراهم تظل محفورة فى ناحية ما من الذهن فتظهر فجأة فى الحلم . لذلك ما الغرابة ان حلمت بالشىء نفسه فى ظرف أربع وعشرين ساعة حتى وان لم يخطر ببالي أثناء النهار . علاوة على ذلك قلت فى نفسي انني ربما قرأت فى مكان ما حكاية كنز مخفي فعلت فعلها فى ذاكرتي دون وعي مني ، ولكن عبثا فتشت عن هذه القراءة .

فى النهاية سئمت التفكير فارتديت ثيابي . كنت مدعوا لحضور حفل زفاف وسرعان ما طرد اختيار البدلة والعجلة ذلك الحلم من بالي ، جلست لتناول فطور الصباح ورحت أقرأ دورية منشورة فى المانيا - المضاء ، فيما أظن - حتى أقضى ساعة .

ذهبت الى حفل الزفاف حيث تجمع أعيان البلاد . كانت لى فى ذلك الوقت علاقات كثيرة . ولذلك كان علي أن أكرر مرارا عديدة أن العروس جميلة جدا ، وان كانت شاحبة قليلا ، وأن العريس شاب ذو قيمة كبيرة ، وأن له مالا ، وأشياء أخرى من هذا القبيل .

فى حدود الساعة الحادية عشرة والنصف أسدل الستار على حفل الزفاف فقصدت محطة الارتال بـ « فولكي » لأعابن منزلا نصحوني به قصد اكترائه لعائلة المانية من القاهرة كانت ترغب فى قضاء الصيف بالاسكندرية . كان المنزل فى الواقع مشبعا بالهواء ، مرتب الاثاث ، الا انه لم يكن كبيرا مثلما قيل لى . وبالرغم من ذلك وعدت صاحبته بأننى سأقول : انه منزل مقبول شكرتني المرأة شكرا مفرطا ، وأخذت تحدثني عن كل المصائب التى ألت بها لاستعطافى : كيف ومتى توفي زوجها المسكين ، وكيف زارت أوروبا ، وأنها لم تتعود تسويغ منزلها ، وأن والدها كان طبيبا ، لست أدري لأى باشا . الخ . أنهيت هذا الواجب وعدت الى المدينة . وصلت بيتى على الساعة الواحدة فافطرت بشهية ، بعد الغداء والقهوة خرجت لزيارة صديق يقيم بفندق قريب من « مقهى الفردوس » لنتفق على شىء نقوم به بعد الظهر ، كنا - وقتئذ - فى شهر أغسطس (أوت) وكانت الشمس محرقة . نزلت شارع شريف باشا بخطوات بطيئة حتى لا أعرق . كان الشارع فى مثل هذا الوقت خاليا ، لم يصادفنى سوى محام كانت لى به صلة من أجل بيع قطعة أرض صغيرة كنت أملكها فى « معزم بيه » . كان آخر جزء من قطعة كبيرة بعثها شيئا فشيئا لتغطية جانب من مصاريفى . كان المحامى رجلا شريفا ولذلك تعاقدت معه . ولكنه كان ثرثارا . وكما كنت أفضل لو سرقنى قليلا عوض أن يزعجنى بهذره . تذرع بشىء لا معنى له لينطلق فى خطبة لا تنتهى ، وأخذ يتحدث عن القانون التجارى والقانون الرومانى مستشهدا بجوستينيوس ، ومذكرا بقضايا سابقة تولى الدفاع عنها فى « أزمى » مادحا نفسه بنفسه ، وكان يشرح لى ألف مسألة ومسألة ماسكا بشيأبى ، وهو ما يقربنى غاية القرف . كان علي أن أتحمل هذر ذلك الشخص البليد ، وأن أغتتم فرصة خفوت حماسه لاسأل عن عملية البيع فهى بالنسبة الى مسألة حيوية ، مما جعلنى أحيده عن طريقى وأتبعه سرنا على « رصيف البورصة » فى « ميدان القناصلة » ثم دخلنا نهجا صغيرا يربط « الميدان الكبير » بـ « الميدان الصغير » . ولما وصلنا أخيرا الى وسط « الميدان الصغير » كانت كل المعلومات التى أرغب فيها بحوزتى . ودعنى

المحامي بعد ان تذكر أنه سيزور أحد حرفائه الذين يسكنون في هذه المنطقة .
تابعته بنظري لحظات ولعنت ثرثرته التي أبعدتني في هذا الحر ، وتحت هذه
الشمس ، عن طريقى .

كنت على وشك الرجوع لأتجه الى الشارع الذى يوجد به « مقهى الفردوس »
حين انتبهت فجأة أنني موجود فى .. الميدان الصغير .. تساءلت فى البداية عن
وجه الغرابة فى ذلك . ثم تذكرت الحلم . « هنا ، موعد ذلك الرجل صاحب
الكنز » قلت ذلك فى نفسى ، وأنا أبتسم . والتفت بصورة آلية الى المكان
الذى يوجد به بعض الحدادين .

يا للهول ! كان ثمة فعلا مقهى صغير . وكان يجلس فيه ذلك الرجل نفسه
أحسست بدوار خنت أنني سأقع على الارض . استندت الى خشبية ،
ونظرت اليه مرة أخرى الملابس السود نفسها ، وقبعة القش عينها . والسحنة
ذاتها والنظرة هى هى . كان هو أيضا يراقبني بشكل متعال . أحسست بنوع
من التوتر العصبى حتى اننى خلت أن حديدا انصهر داخلى . لقد أقعدنى أن أرى
الناس فى وضع النهار يمرون دون أن يبالوا بأى شئ ، وأنا ، أنا وحدى
الذى يعلم بالأمر الرهيب الذى يحدث ، وأن هناك ، يجلس شبح لست أدري
أى قدرات له ومن أى كوكب مجهول ، من أى جحيم . أتى . وصرت ارتعد . لم
يكف الشبح عن النظر الى خشيت أن ينهض ويقرب مني ، وأية قوة آدمية يمكن
حينئذ أن تساعدني ؟ قفزت فى عربة خيل ، وأعطيت الحوذى عنوانا بعيدا لم
أعد أذكره .

حينما عدت الى رشدى لاحظت أنني كدت أصل الى « سيدى غفير » . ملكت
أعصابى وأعدت النظر فى أمرى . أمرت الحوذى بالرجوع الى المدينة وقلت فى
نفسى « لقد جننت . لاشك أنني أخطأت . قد يكون شخصا يشبه رجل الحلم .
يجب أن أعود لكى أتأكد . ربما انصرف ، وهذا دليل على كونه شخصا آخر ،
لأن الرجل قال : انه سوف ينتظرني حتى الساعة الرابعة » .

غصت فى أفكارى حتى أشرفت على مسرح « زيزينيا » هناك استجمعت كل
شجاعتي وأمرت الحوذى بأن يقودنى الى « الميدان الصغير » . كان قلبى يدق
بعنف كلما اقتربت من المقهى . أوقفت الحوذى على مسافة غير بعيدة . جذبته
من يده بقوة حتى كدت أوقعه من مقعده لأننى رأيته يزداد اقترابا من المقهى
مثلما رأيته الشبح لا يزال جالسا هناك .

عندئذ أخذت أتفحصه مليا عسى أن أجد شيئا بينه وبين رجل الحلم ، وكان ذلك غير كاف لاقتناعي ، فأى انسان غريب لا يحتمل أن يجلس شخص مثلى فى عربة ويتأمله مليا . ولا بد أن يستجلى الامر . أما هو فقد ثبت عينيه فى عيني بقوة . وكانت سحنته تشى بالقلق الناجم عن القرار الذى سوف أتخذه . بدأ أنه سبر أفكارى مثلما سبرها خلال الحلم ، ولكى يزيل عني كل نوع من الشك فى هويته أدار نحوى يده اليسرى وأراني خاتم الزمرد الذى أثار انتباهى أثناء حلمى الاول ، بشكل واضح حتى اننى خشيت أن يلحمه الحوذى .

أطلقت صيحة فزع وقلت للحوذى الذى بدأ يشك فى مدارك حريفه أن يقودني الى شارع « الرملة » لم يكن لدى سوى فكرة واحدة ، أن أبتعد فى شارع « الرملة » أردت أن أواصل طريقى الى « سان ستيفانو » ولكنى رأيت الحوذى يتردد ويتمتم فدفعته له أجره ونزلت ، أوقفت عربة أخرى قادتني الى « سان ستيفانو » .

وصلت هنا فى حالة يرثى لها . دخلت قاعة الكازينو واستولى علي الرعب حين شاهدت وجهي فى المرآة ، كنت شاحبا مثل جثة ، من حسن حظى أن القاعة كانت خالية ، تهالكت على كنبه لأفكر فيما ينبغي القيام به ، كان أمرا مستحيلا أن أعود الى بيتى ، أن أعود الى تلك الغرفة التى دخلها ليلا مثل طيف وهمي ذلك الذى رأيته منذ قليل جالسا بمقهى ، فى هيئة رجل عادى ، فهذا ليس واردا اطلاقا . لم يكن الأمر منطقيا إذ هو قادر أن يلقانى فى أى مكان : لقد صرت أفكر بطريقة مشوشة ، وفى النهاية قررت أن التجس ، الى صديقى ج ب الذى كان يسكن فى « محرم بيه » .

سألته :

– أى ج ب . ؟ أتعني ذلك الشخص غريب الاطوار الذى يتعاطى دراسة السحر ؟

– هو نفسه ، وقد اعتبرت ذلك عند اختياري ، لا أذكر كيف ركبت القطار ؟ وكيف وصلت الى « محرم بيه » وأنا أقلب النظر يمينا وشمالا كالمجنون مخافة أن يظهر الشبح من جديد الى جانبى ؟ ولا كيف انهرت أخيرا فى بيت ج ب . لم احتفظ من ذلك إلا بذكرى مبهمه ومشوشة . أذكر فقط أنني جعلت أبكي بهستيريا وأختض بكامل جسدى وأروى له مغامرته المرعبة . هدا ج . ب روعى

وقال لي بمزيج من الجد والهزل : لا داعي للخوف ، فالشبح لن يتجاسر على اقتحام بيته ، وإذا جاء فانه سوف يطرده في الحال ، قال انه يعرف هذا النوع من التجليات الخارقة ، ويعرف - أيضا - طرق التخلص منها . والسح علي أن أقتنع بأنه لم يعد هناك داع للخوف لأن الشبح جاءني لغاية معينة وهي أن اتيه بعلبة الحديد التي لم يكن باستطاعته - فيما يبدو - استرجاعها دون مساعدة رجل ما . هذه الغاية لم يحققها ، ولا شك أن فزعي قد جعله يدرك أنه لم يعد ثمة أمل في تحقيقها . ربما يذهب لاقناع شخص آخر . ب . تأسف فقط لأننى لم أعلمه فى الوقت المناسب حتى يذهب لرؤية الشبح والتحدث اليه ، ففي مسألة الاشباح - كما قال - من المآدر جدا أن تظهر الأرواح أو الجن فى وضوح النهار ورغم ذلك لم أطمئن وقضيت ليلة مضطربة وأنقت من الغد ، وانا أتقد من الحمى . وقد أحدث جهل الطبيب ، وتفاقم حالة جهازى العصبى احتقانا فى المخ كاد يودى بحياتى ولما تماثلت للشفاء أردت أن أسأل عن تاريخ اليوم الذى أنا فيه . لقد مرضت يوم الثالث من أغسطس (أوت) وكنت أعتقد أن اليوم هو السابع أو الثامن من الشهر نفسه ، ولكن اتضح أننا فى الثاني من سبتمبر .

رحلة قصيرة الى جزيرة بيجر ايجه عجلت بشفائى خلال المدة التى استغرقتها مرضى بقيت عند صديقى ب . الذى تولى علاجى والعناية بى كان يتذمر فى سره من شئ واحد : لم تكن لديه الجرأة لطرد الطبيب ومعالجتي بالسحر الذى يعتقد أنه يشفينى - وهو ما اعتقدته أنا أيضا - أسرع من الطبيب . هى ذى الفرصة التى سنحت لى لكى أصبح مليونيرا . ولكنى لم أجرو . لم أجرو ولم أندم على ذلك .

هنا سكت الاسكندر . لقد كانت حكايته على درجة من اليقين والبساطة بحيث لم يعد ثمة موجب للتعليق . ثم ان الساعة جاوزت منتصف الليل بسبع وعشرين دقيقة ، وبما أن آخر قطار ينطلق فى منتصف الليل والنصف فقد ودعناه وانصرفنا مسرعين .

(*) قسطنطين كفاقي (1863 - 1933) اكبر الشعراء اليونانيين المحدثين لا يعرف له انتاج نثرى غير يومياته ورسائله ، هذه القصة يعود تاريخها حسب س . ستافيريس الذى ترجمها الى الفرنسية الى شتاء 1895 - 1896 ولم يعثر عليها إلا فى مطلع الثمانينات حيث نشرت - أول مرة - فى الجريدة اليومية اليونانية « توفيميا » .

تأليف : شارل بودلير (**)

تعريب : بوراوي عجينة

لعبة الفقير (*)

أود أن أقدم رأيا حول تسلية بريئة ، فالتسلية غير الاثيمة قليلة الوجود ، نادرة .

عندما ستخرج من منزلك صباحا ، وأنت عاقد العزم على التجول في الشوارع العريضة لاضاعة الوقت ، املأ جيوبك بمخترعات زهيدة الثمن

(*) **لعبة الفقير** : «Le Joujou du pauvre» قصة قصيرة نشرت ضمن كتاب عنوانه : «Les 30 meilleures nouvelles de la littérature française» أفضل 30 قصة قصيرة في الأدب الفرنسي

Collection Marabout n° 19 - 1986. Belgique. Choix et présentation Pierre Maury. p. 217 - p. 218.

سلسلة مارابو (I9) سنة 1986 . بلجيكا - اختيار وتقديم بيار موري .
ص 17 و ص 218 .

(**) **شارل بودلير** : «Charles Baudelaire» كاتب وشاعر فرنسي ولد بباريس سنة 1821 . كان وريث الرومنطية ووفيا للكتابة الشعرية التقليدية .
عبر في آن واحد عن مأساة قدر الانسان ونظرة صوفية الى العالم حيث يكشف عن « مراسلات غريبة » .

نشر ديوان : « أزهار الشر » سنة 1857 ، و « قصائد قصيرة نثرية » سنة 1857 .

ودراسة نقدية : « الفن الرومنطقي » سنة 1868 . وتعتبر هذه الاعمال الادبية مصدر الحساسية العصرية .
توفي بودلير سنة 1868 (لاروس الصغير) .

مثل دمية تافهة مشدودة الى خيط واحد ، وحدادين يطرقون على السندان وفارس على حصانه ويكون ذيله صفارة . ثم اهد تلك اللعب الى أطفال مجهولين وفقراء سيعترضون سبيلك بمحاذاة الحانات وقرب جذوع الاشجار . فترى عيونهم تتسع اتساعا مفرطا . لن يجرؤوا أول الامر على أخذها ، لن يصدقوا حظهم السعيد ، ثم ستتشبث أيديهم بالهدية فى قوة وسيهربون ، مثلما تفعل القطط التى تذهب بعيدا عنك لتأكل الرغيف الذى أعطيتها ، وهى التى قد خبرت الحذر من الانسان .

وفى أحد الشوارع - ووراء سياج حديقة واسعة ظهر فى طرفها بياض قصر منيف سطعت عليه الشمس - يقف طفل وسيم بهي الطلعة يرتدي ثيابا من ملابس الريف الانيقة جدا .

إن الترف واللامبالاة ومشهد الغنى المعتاد تجعل أولئك الاطفال وسيمين جدا ، حتى لكان الناس يظنون أنهم صنعوا من طينة أخرى غير طينة أطفال الحفاصة والفقير .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

لقد طرحت قربه ، على الحشيش ، لعبة سنينة فاخرة فى مثل بهاء سيدها ، مطلية براقه مرتدية ثوبا قاني الحمرة محلى بريش القبعات وبقطع زجاجية صغيرة . ولكن الطفل كان منشغلا عن لعبته المفضلة ، وهذا ما كان ينظر اليه .

كان فى الطرف الآخر من السياج ، فى الشارع ، بين الاشواك ونباتات الحريق ، طفل آخر متسخ ، هزيل قاتم ، وهو أحد هؤلاء الصبية المحتقرين : ويمكن لعين محايدة أن تكشف عن وسامته ، كما لو أن عين شخص عارف تتفطن الى رسم مثالى تحت طلاء صانع صناديق العربات ، فتمسحه وتزيل عنه غناء التعاسة المقيت .

ويظهر الطفل الفقير لعبته الحفاصة للطفل الغنى من خلال القضبان الحديدية الرمزية الفاصلة بين عالمين مختلفين ، وبين الشارع والقصر .

فينظر اليها الطفل الغني متفحصا ملهوها كما لو أنها كانت كسبا نادرا ومجهولا . والواقع أن تلك اللعبة التي كان الطفل القذر يزعجها ويلوح بها ويهزها داخل صندوق مشبك كانت جرذا حيا ! فوالداه كانا قد استمدا اللعبة من الحياة نفسها حتى يقتصدا في النفقة بدون شك .

وإذا بالطفلين يضحك أحدهما للآخر ضحكة أخوة كاشفين عن أسنان لها نفس البياض .

تعريب : بوراوي عجيبة

شارل بودليير



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

من منشورات قصص (مجموعات قصصية)

- ♦ أحلام بحار متعب 2د،400
- ♦ لماذا تموت العصافير 2د،400
- ♦ الصمت والمرايا 3د،800
- ♦

ميزوني البناني

قرأت العدد الاخير

« قصص » مجلة تصل الى عديد المناطق من هذا العالم ، فهي إذن سفيرة القصة التونسية ، وما دامت تلعب هذا الدور الادبي ، فلقد كانت أسرة المجلة حريصة دائما على نشر ما يمثل الادب التونسي أحسن تمثيل ...

ورغم أني بدأت أتعامل مع المجلة أخيرا ، فلقد كنت من قبل حريصا على اقتنائها لأنني أومن بجودة محتوياتها التي شدتني إليها أكثر من مرة بأياد من حديد منذ قراءة سطورها الاولى ، وهذا ما جعلني أوافق بسهولة - قبل أن أطلع على المحتوى - على أن أعد قراءة نقدية سريعة في ما جاء به العدد 84 من المجلة .

ولكنني - وقد قرأت كل قصص العدد أكثر من مرة - تيقنت أن « خديجة الجويني » قد كلفتني بمهمة كادت تكون سهلة لو تعلقت بأعداد سابقة أو لاحقة ، وأرجو ألا تعترضني في الأعداد القادمة ما اعترضني في هذا العدد من صعوبات في فك طلاسم بعض القصص الفولاذية التي لا تقبل التشريح .

ولقد رأيت أن قصص هذا العدد فيها ما تشترك في الغموض وفيها ما تشترك في السرد وأخيرا فيها ما تشترك في التداخي .

♦ الغموض :

(1) قصة : (بين اللتيا والتي) لـ : « زهرة الجلاصي » :

أجهدت القاصة نفسها في توظيف الرمز (اللتيا - التي) بشكل طفي على المضمون وهمش الاحداث والمرامي وملامح الشخصوس ، كان عليها أن توضح في الهامش مدلولي (اللتيا والتي) خاصة وقد ذكرا في الشعر العربي ، مثلما فعل مترجم قصة البرميل الى العربية - أحمد ممو - الذي لم يترك شخصية «ديوجينوس» مجهولة المدلول والاصل .

(2) قصة : (أمل كاذب) لـ : « مصطفى الكيلاني » :

وموضوعها أن البطل أراد اقتراض مائة دينار من « صاحبة الرموش المستعارة » ليتم بها الشهر ، فاستعان في البحث عنها بسيدة محل الحلاقة . ولكن أبناء منتصف الليل أعلنت خبر اعتقال صاحبة الرموش المستعارة والحلاقة وصاحباتها وشخصيات مرموقة كثيرة . وكان يمكن إجلاء الغموض لو سمي القاص الاشياء بأسمائها ، فانت لا تستطيع ببسر ربط الأحداث لتدرك المقصود من « وكالة الصبر » و « شظية - المرأة » و « الوجه الحنزي » وعلاقته بصاحبة الرموش المستعارة .

(3) قصة : (الديك) لـ : « جلول عزونة » :

فيها تجديد من حيث الشكل ، فلقد جاءت عبارة عن ومضات تضيء بعض المواقف والافكار الحضارية والثورية ، وكل ومضة كانت مستقلة عن الاخرى بطريقة توحى بالثرثرة والهديان ، ويصعب في كل الاحوال على القارئ ادراك أن هذا الهديان وهذه الاخبار المتفرقة هي ناتجة عن الديك الذي لم يصدق هذا الصباح في وقته المعتاد مما سبب تأخرا في نهوض النائمين ، ولعل نقل القاص لأحلام كل نائم على حدة سبب هذا التششت والتفكك في وحدة الموضوع .

ولكني أختتم الحديث عن الغموض أقول إن الانسان مفطور على حب الايحاء والتلميح في اللغة والمعاملات . . إنه يبحث أيضا عن المجالات التي تشركه في حل عقدة أو لغز ما ليتمتع بنخوة تفكيك الرموز والمتقاربات وتأويلها ، وإذا كانت القصة تعتبر مجالا من المجالات التي يبحث فيها القارئ عن نفسه ، فلا يجب أن نبالغ في تعميم النص وشحنه بالرموز - باسم تشريك القارئ في التأويل ومنحه فرصة ممارسة هواية التفكيك - لان ذلك يجعلنا نخسر أكثر مما نربح من قراء ، فنحن اليوم نكاد لا نجد من يقرأ نصوصا واضحة بعيدة كل البعد عن النخبوية ، فكيف نجرو على كتابة نصوص بكل هذا الغموض ؟

♦ السرد :

(1) قصة : (البرميل) تأليف : «آرفى فالتون» تعريب : «أحمد ممو» :

تصف مدى احساس البطل بالمسؤولية فى حل أزمة السكن المستقبلية ،
الشيء الذى جعله يحكم على نفسه بالايواء الى برميل أعده خصيصا للسكن
حتى يبرهن « أن لانسان لا يحتاج الى أكثر من ثلاثة أو أربعة أمتار مربعة
لكى يعيش » وبذلك بين كيف أنه لا خوف من أزمة السكن متى التزم كل
ساكن بما التزم به هو ودعا اليه ، فكان شخصية لها حساسيتها ومواقفها
من الحياة المعاصرة ورتابة الحياة اليومية .

ورغم أن القصة تكاد تكون علمية برسومها الهندسية ، فقلما يشعر
القارئ بالملل والجمود ، خاصة أن القاص عرف كيف يوظف السرد ويجمع
بين ما هو خارجى للاحداث وما هو داخلى باطنى للشخص ، فلقد أخرج لنا
مكونات البطل وهواجسه وعذاباتة تجاه ما هو كائن وجعله يحدثنا متى
شعرنا بالحاجة الى سماع صوته .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

هذا الشخص الذى قد يشك القارئ فى مدى سلامة مداركه العقلية ، هو
الفيلسوف الاغريقى « ديوجينوس » الذى - كما جاء فى الهامش - عاش
بين 413 و 323 ق م ، كان يهوى التقشف والعيش الكفيف بعيدا عن كل
التقاليد الاجتماعية .

(2) قصة : (الأجير) لـ : « محمد الخموسي الحناشي » :

وهى تتحدث عن « زهران » - الفتى - الذى مات والده وأصبحت أمه
عاجزة عن الحركة ، « وأمام جشع الملاك وخشونة طباعهم ، لم يكن يطيل البقاء
مع أحدهم أكثر من عام لما جبل عليه من أنفة وعزة نفس » وشاءت الصدفة
أن يتدخل له أحد أقاربه فى الحصول على عمل بحضيرة المدينة ، ونظرا
لافكاره التحررية والثورية ولنبنذة غطرسة المسؤولين ، يتسم طرده فيختار
الهجرة الى طرابلس .

القصة سردية بحثة تخلو من الصور الحية والنفس المتجدد . جاءت في
خط تصاعدي بطيء وممل ، كانت تكون أمتع لو أنها بقيت مفتوحة ، كان على
القاص أن لا يتعجل الخاتمة بتلك الطريقة التقليدية التي عجت بها قصص
السبعينات .

3) قصة : (رقص سماح على أنغام زرياب) لـ : « محمد عبد الرحمن يونس » :

وهي قصة تتحدث عن نقمة طالب عن الاوضاع المتردية وبحثه عن ذاته
وسط عالم من المتناقضات ، فهو ذلك الفقير الذي لم يجد حذاء جديدا ينتعله
بدل ذلك المثقوب من وجهه ، والذي يرى بعينه كيف تأتي الطالبات في أفخم
الفساتين والسيارات وهن اللاتي يدخن السجائر الامريكية ويتبرأن من
انتسابهن للعرب الذين حسب رأى « علجية » عقولهم أنصافهم السفلى ، مما
جعل هذا الطالب ينسحب من المدرج السابع .

القصة تمتاز بسردها الذي اعتمد تقنيات « الومضة السورائية » وأيضا
نقل الحوارات متناقضة غير متناسية ، فلقد عرف القاص كيف يرتب تدخلات
الطلبة المتباينة من حيث الاهتمام ليسخر من تهميش القضايا الشائكة .

فحتى الاسناد الجامعي ، جعله ينسى موضوع الدرس - المحاضرة -
وينساق مع الطالبات في الحديث عن الموضة والدعايات الاشهارية :

- لا يا سعيدة ، إني أفضل « تويوتا 2000 » .

4 - قصة : (شبشوب) لـ : « محمد بلعيد » :

بوجمة بناء يقوم والعملة بتشديد منزل السيد توفيق على شاطئ
بحر رواد .

شبشوب جرو كبر بين يدي بوجمة حتى أصبح كلبا ضخما الجثة ،
أمينا . وفجأة وبدون إعلام ، يتوقف البناء عن العمل ويغادر البناية بعد أن
أخذ أمتعته . فما العلاقة يا ترى بين فراره وموت كلبه شبشوب الذي وجد
توفيق جثته منتفخة فحفر لها حفرة وهال عليها التراب بحزن كبير ؟

القصة تمتاز بسردها التفصيلي وتصاعدها الزمني ، وبوضوح معالم وملامح بطلها ، لانها اهتمت بالواقعية النفسية من خلال شخصية بوجمعة . النص بقي مفتوحا يطرح السؤال الذي طرحته في الموضوع وهذا من شأنه أن يشرك القارئ في البحث والتساؤل .

وردت فيه حوارات بلغة عامية محلية ، كان من الافضل تجنب ذلك خاصة أن اللهجات واللغات المحلية تختلف من بلد الى آخر وربما يقف ذلك عائقا في طريق القارئ العربي بما أن المجلة «قصص» تصل الى جل الاقطار العربية .

♦ التلاعي ...

1) قصة : (الابريق) لـ : « راضية الرياحي الجمل » :

منذ السطر الاول : « وأغوص في أعماق الماضي تبللني ذكريات جد جميلة ... » يدرك القارئ أنه سيتتبع حدثا موعلا في الماضي وهذا الحدث (الصعود على الكرسي لانزال ابريق الشاي - انزلاق الكرسي - جرح على الجبين) تذكرته القاصة لتشابهه بمغامرة تخوضها في الوقت الحاضر ، وهو حب التوغل في فضاء الكهف المظلم . ورغم رجاء الأم أن تعود ، فلقد كانت الطفلة المغامرة لا تزال كامنة فيها رغم كبر سنها .

القصة اعتمدت التداخي واحياء صور الماضي والرجوع الى الطفولة كمصدر للالهام . وباعتبار أن هذا المصدر نهل منه الكثيرون ، فلا بد من البحث عن طرق التميز والطرح الجديد الذي يتماشى وروح العصر المتغير وهذا ما لم يتوفر في النص بالشكل المطلوب .

2) قصة : (رسوم على الثلوج) لـ : « ميزوني البناني » :

ولاني صاحب هذا النص فسوف أكتفي بملاحظة أبقاها لي يوما القاص يوسف عبد العاطي وهي طغيان الانشائية على بعض فقرات النص .

ميزوني البناني

القصيرين 89/8/29

مسرد القصص التوثيقية

جريدة «الصدى» أسبوعية صادرة عن دار الصباح

لصاحبها الحبيب شيوخ روجه 1974 - 1977

اعداد : خديجة الجويني

اسم الكاتب	عنوان القصة	تاريخ الصدور	السنة	العدد
عبد الواحد ابراهيم	الجنة وشيوخ العشائر	13 ماي 1974	1	1
محمد الصالح الجابري	أطواق الخرز	20 ماي 1974	1	2
عدنان مبارك	ضحيا	10 جوان 1974	1	5
محمد المختار جنات	حكاية التلعة	24 جوان 1974	1	7
فاطمة سليم	نشاز	1 جويلية 1974	1	8
جلول عزونة	الدود والأفاعي	8 جويلية 1974	1	9
محسن بن ضياف	محاكمة رجل ميت	15 جويلية 1974	1	10
أحمد العشي	هارب من الزواج	22 جويلية 1974	1	11
محمد المختار العبيدي	أسطورة من العهد البائد	29 جويلية 1974	1	12
محمد الطاهر الضيفاي	أشياء شخصية في زمن الانتفاء	5 أوت 1974	1	13
محمد الهادي بن صالح	خطاف واحد لا يصنع الربيع	12 أوت 1974	1	14
جميلة الماجري	الهجرة إليك	19 أوت 1974	1	15

العدد	السنة	تاريخ الصدور	عنوان القصة	اسم الكاتب
16	1	26 أوت 1974	في مر الحياة	المختار الزاوي
17	1	2 سبتمبر 1974	نظرة من قلب باب قديم	محمد بن عاشور
18	1	9 سبتمبر 1974	الجزء	محمد الهادي بن صالح
19	1	16 سبتمبر 1974	أحبك يا قرينتي	محمد الهادي بن عبد الله
20	1	23 سبتمبر 1974	كانك على الفلوس عندي	عروسة النالوتي
21	1	30 سبتمبر 1974	قطرات دم على الرصيف	ابراهيم الصغير الخلفي
22	1	7 أكتوبر 1974	من حكايات السيد س. أطلق في الخطأ	سمير انعيادي
23	1	14 أكتوبر 1974	لن أبقى غازا مهملًا لأجل أشياء غير مهمة	بوروي سعيدانة
24	1	21 أكتوبر 1974	دبوس القول	الطاهر البليدي
25	1	28 أكتوبر 1974	كالآخرين	حياة بن الشيخ
27	1	11 نوفمبر 1974	انشطاران	عبد الواحد ابراهيم
28	1	18 نوفمبر 1974	سقطت يده	حسن نصر
29	1	25 نوفمبر 1974	في الألفه	محمد الهادي بن صالح
30	1	2 ديسمبر 1974	هروب	محمد عرجون
35	2	6 جاني 1975	الطراب	عبد الله الخلافي
36	2	13 جاني 1975	عندما تتلبسني حلما تكون الوجهة	خيرة الشيباني
37	2	20 جاني 1975	ص. ب. 8914 الصراع	ابراهيم الصغير الخلفي

اسم الكاتب	عنوان القصة	تاريخ الصدور	السنة	المجلد
سمير العمادي	خيانة تحت المطر	27 جـانفي 1975	2	38
مفتاح غرسلاوي	رحلة الجراح اللقطة	10 فيفري 1975	2	40
سمير العمادي	من حكايات السيد س ساعة غضب	17 فيفري 1975	2	41
محمد الهادي بن عبد الله	آه من المكثوب	24 فيفري 1975	2	42
الطيب بن فضيلة	أصابع مسمومة على الزر	3 مارس 1975	2	43
الطيب كريدان	و مر عام كامل	10 مارس 1975	2	44
الناصر رجب	تريد أن تعيش	17 مارس 1975	2	45
حسن نصر	حالة مرهبة	17 مارس 1975	2	45
بلقاسم الحلافي	بيع بالزاد العلني	24 مارس 1975	2	46
حسن نصر	اهتمامات خاصة	7 أفريل 1975	2	48
المنجي الفندري	ويحلمون ، فتضحك الاحلام	14 أفريل 1975	2	49
نعمة الصيد	ليالي المدينة الليلية	21 أفريل 1975	2	50
عروسة النالوتي	لا تعطيني سمكا ، علمني كيف اصطاد	21 أفريل 1975	2	50
محمد المرزوقي	جيرة	28 أفريل 1975	2	51
محمد الطيب براهيم	لو سمجتم لحظة	5 ماي 1975	2	52
الناصر رجب	زوايا الكون الخفية	12 ماي 1975	2	53
المختار العبيدي	ممشوقي	19 ماي 1975	2	54
الطيب كريدان	الى مولاتي	9 جوان 1975	2	57
نعمة الصيد	البحر يجري	16 جوان 1975	2	58

العدد	السنة	تاريخ الصدور	عنوان القصة	اسم الكاتب
58	2	16 جوان 1975	ند وعنبر وإكيل	المنجي الفندري
59	2	23 جوان 1975	إمرأة تحت الصفر	حياة الشيخ
60	2	30 جوان 1975	عاشق المطر	محمد بن عاشور
61	2	7 جويلية 1975	العصر والمشرق	حسن نصر
62	2	14 جويلية 1975	أستاذي	فوزية بن فرج
66	2	11 أوت 1975	شطحة مجنون	محمد حمدون
67	2	18 أوت 1975	ليتي كنت توابا	محمد الهادي الماطري
69	2	1 سبتمبر 1975	المشاعر لا تموت في صمت	الناصر رجب
70	2	8 سبتمبر 1975	في سبيل الحياة	المختار الزاوي
71	2	15 سبتمبر 1975	من بعض الأحزان	بنت البحر
72	2	22 سبتمبر 1975	القطار	عبد العزيز فاخ
73	2	29 سبتمبر 1975	شفاه باردة	ابراهيم الصغير الحلبي
76	2	20 أكتوبر 1975	كلاب القرية	خالد محمد
83	2	8 ديسمبر 1975	الزحف بالركبتين على الزجاج الملعون	يوسف رزوقه
84	2	15 ديسمبر 1975	الزقاق	حياة بن الشيخ
85	2	22 ديسمبر 1975	وتعري الانسان	بوراي عجيبة
87	2	5 جانفي 1976	المرآة	المنجي الفندري
88	2	12 جانفي 1976	الحرص الضائع	أحمد العشي
89	2	19 جانفي 1976	امرأة الجسد	بوراي عجيبة

اسم الكاتب	عنوان القصة	تاريخ الصدور	السنة	العدد
عروسية النالوتي	البعد الخامس	1976 جاني	2	90
محمد ابراهيم	الاختيار	1976 فيفري	2	91
جيلة سويد	لا أريد حرية	1976 فيفري	9	92
بنت البحر	الطفلة انتحرت	1976 فيفري	23	94
حسين الترومي	ضباع	1976 فيفري	23	94
أحمد العشي	الجبل المعجوز	1976 مارس	1	95
محمد حمدون	البوم والأشباح	1976 مارس	8	96
مصطفى عطية	الطية	1976 مارس	15	97
أحمد العشي	الشیطان الأزرق	1976 مارس	15	97
عبد الحميد المكني	الخنفساء والدائرة الحمراء	1976 مارس	22	98
بوراي عجيبة	عودة المهاجر	1976 مارس	29	99
حياة بن الشيخ	بلا رجل	1976 أفريل	5	100
الناصر رجب	الطاحونة الصغيرة	1976 أفريل	12	101
أحمد العشي	رسالة خالدة	1976 أفريل	26	103
عبد الستار العربي	دمعتان	1976 ماي	3	104
محمد ابراهيم	التيه في أعقاب الليل	1976 ماي	3	104
عبد المجيد النجار	الجدار	1976 ماي	10	105
عبد المجيد المكني	رسالة مشنوقة	1976 ماي	17	106
يوسف رزوقة	بقايا ضمير	1976 ماي	24	107

العدد	السنة	تاريخ الصدور	عنوان القصة	اسم الكاتب
108	3	31 مساي 1976	لكن الزمن لا يتوقف	الناصر رجب
109	3	7 جوان 1976	ناكسي . . . ناكسي	فاطمة سليم
110	3	14 جوان 1976	كيف أكلت فراخ المصافير التي عشت في مطبخي	صالح البكاري
111	3	21 جوان 1976	مات المدحان	جلول عزونة
112	3	28 جوان 1976	لكل قصة	الهادي السالي
112	3	28 جوان 1976	نسيت كيف تبتسم	أحمد العش
113	3	2 جويلية 1976	قالت : البحر أكل أهلي	صالح البكاري
114	3	28 جويلية 1976	العصافير	المنجي الفدري
117	3	2 أوت 1976	الى أين؟؟	عبد المجيد السعودي
119	3	16 أوت 1976	حكاية بنت مع رجل لا تعرفه	عبد الفتاح رزق
121	3	30 أوت 1976	القحط	إيميلي نصر الله
124	3	27 سبتمبر 1976	عاصفة على سوق العصر	عبد الله الخلافي
125	3	4 أكتوبر 1976	الى يوم الأحد	محمد بيني - دومينيكوريا (إيطاليا)
126	3	11 أكتوبر 1976	شرح في نجمة داود	فتحي الجديدي
129	3	1 نوفمبر 1976	رجلان في النهر	عبد الله الخلافي
135	3	13 ديسمبر 1976	عليوات	الطاهر البليدي
137	3	27 ديسمبر 1976	التفاحة	سلمى شلاس (دمشق)
143	3	7 فيفري 1977	عندما حدثت البحر	نور الدين بن بقلاسم

العدد	السنة	تاريخ الصدور	عنوان القصة	اسم الكاتب
146	3	28 فيفري 1977	فراغات الطيور	عبد الله الخلافي
153	3	18 أفريل 1977	صاحب العقل الكبير	محمود عبد المولى
155	3	2 ماي 1977	لا وجه للمصطفة	الناصر بن رجب
157	4	16 ماي 1977	عاشقة السلطان	حياة بن الشيخ
158	4	23 ماي 1977	لقاء الأصيل	يوسف رزونة
159	4	30 ماي 1977	الدوائر	محمد المسلاطي (ليبيا)
160	4	6 جوان 1977	الصيد كريكاس	« بلا توقيع » فرايز كافكا (عالية)
160	4	6 جوان 1977	الصبي سلامة	توفيق فياض (فلسطين)
161	4	13 جوان 1977	الوجه الضائع	بنت البحر
163	4	27 جوان 1977	من أحكي أحزاني	« بلا توقيع » تيشكوف (روسيا)
164	4	4 جويلية 1977	مسافرون بدون محطة	عاطف عودة (مورساليا)
165	4	11 جويلية 1977	إنقاذ	« بلا توقيع » (من اليابان)

حسني سيد لبيب

رائحة الفل

لا أدري كيف تسلس الحب ، خلسة ، الى قلبي ، نما شيئاً فشيئاً ، كنبت أخضر .

لم أكن أعير أمنية التفاتا ، ولم تتعد صلتى بها التعاون معها لانجاز أعمال تكلف بها . وكثيراً ما ألومها لتكاسلها وتراخيها ، ثم أردد مقولتي الشهيرة : « مكان المرأة البيت » ، فأكسب تأييد الزملاء ، وترجمني الزميلات بالسخط واللوم ، ويختلقن المعاذير ، فخروجهن للعمل لمصلحة الرجل وشد أزره . وكانت أمنية تلوذ بالصمت . برغم تقدمها في السن ، الا أن تقاطيع وجهها تنم عن طفولة حلوة ما زال السحر الملون للقسمات هازماً لعشرين سنة خلت من عمرها . الفم الصغير الضاحك ، يفضح حبات اللآلئ الكامنة . والحدان المتوردان ، هما لفتاة في السادسة عشرة . والعينان قد انكسر بريقهما ، وما زالتا بريئتين مخلصيتين .

أقتعد كرسيي ، وأنجز مكاتباتي . أسحب بعض الملفات من على مكتبها ، قاصداً مساعدتها ، فترضى ولا تتذمر . ذات مرة ،، حدثتني عن بيتها وابنتها . ولم تحدثني عن زوجها الذي سافر للعمل ببلد عربي . عرفت من الزملاء أنها طلقت منذ سنوات . وصارت أمانى كل شيء في حياتها . أما الجرح الغائر – الألم الدفين – فتستعيض عنه بالحديث عن ابنتها ، فأحببتها وشعرت أنها تكاد تقيم في بيتي أختاً لمحمود وعلاء . أقلق لمرضها مثل قلق امها ، وأكثر السؤال عن صحتها حتى أتأكد أنها شفيت . وكل اجازات أمنية من أجل أمانى . . .

« هي اليوم مريضة ، فاستاذن غدا ، »

« سأقدم أوراقها في مدرسة حضانة ، قد أغيب عنكم يوماً أو يومين » .

« ما رأيك يا مدحت : هل أقدم لها في حضانة اللغات أم حضانة العربي » .

« سأذهب وأمانى الى حديقة الحيوان ، قالت لي : انها لم تر الفيل وزلومته » .

« والنبي يا مدحت تغطي عملي اليوم » .

أمانى ملكة متوجة على عرش مملكة الأم . تطلب فتجاب طلباتها .

- جعلتني أحب أمانى ، وأتمنى أن أراها .

وفوجئت بها تحضر أمانى معها . احتضنتها وقبلتها وأحضرت لها الملابس والشيكولاتة .

بدأت أقترب من عالم أمانى . اكتشفت - بعد زمالة خمس سنين - أنها عصبية المزاج . كثيرا ما تثور فى وجه رئيسها ، وتلقي بملفات العمل فى وجهه ، متحدية إياه ، فأعمل على تهدئتها ، وأختلق لها المعاذير أمام الرئيس . وسرعان ما تتحلل من عنادها وتصبح قطة لينة تأمرها فتطيع . عرفت أنها فى بيتها تمر بهذه الحالات ، وما يظهر فى العمل مجرد أعراض خفيفة . ربما لأنها تعيش وحيدة مع طفلتها وأمها العجوز التى تقول دائما : « أمى فى حاجة لمن يساعدها » .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

لم يعمر زواجها غير شهور قليلة . بدأت تتحلل من تحفظها ، وحكت لي عن زوجها السابق ، كيف كان يعاملها بأنانية لا تطاق ، ويفضل مصلحته فى تكوين ثروة مالية ، دون اهتمام بشؤونها . غضبت واحتدت معه لمشاركته أخاه فى تجارة ترى أنها حرام فى حرام . فرماها بقول لا يليق فطلبت الطلاق فى لحظة انفعال ودفاع عن الكرامة ، فأجاب طلبها ...

لم تندم . أحسست بها وهى تصف ما حدث ، تكاد تبكي ألما ممضا على حالها ...

- لم أندم . صدقني لم أندم ، لسبب بسيط هو أن الزوج الذى يفك رباط الزوجية بسهولة ، ليس جديرا بقلب المرأة .

بكت . أخرجت منديلي ، فسبقني بمنديلها تجفف دموعها .

- أتعرف لم أبكي ؟ طلقني وأنا حامل بأمانى ، فى الشهر الرابع هل تصدق ؟

– جبان .. تافه ..

ومن يومها ، لم أشأ الخوض فى هذا الموضوع ، تركت لأمانى الحرية فى أن تستحوذ على اهتمامنا وتشغلنا .

وكانت سعادة أمنية فى إسعاد أمانى ...

وفي يوم ، سألتني عن دواء للسعال بحثت عنه فى الصيدليات فلم تجده . فأخذت أبحث عنه حتى وجدته . ورفضت أن آخذ ثمنه فشكرتني ووضعت على مكتبي باقة فل . فرحت بالفل الذى أرجعني الى أيام الخطوبة ، حين كنت أتنزه مع خطيبتي – زوجتي الآن – على كورنيش النيل ، وبائع الفل يغازلنا بعناقيده البيضاء . أمد يدي لأتناول واحدة ، فينتهز الفرصة ويعطني للتي أصبحت أم أولادى أربعة أو خمسة عناقيد ، فأضطر أن اجزل فى العطاء . واسير سعيدا مع حبيبتي ورائحة الفل تسحرنا وتجمل الامسية .

عاد قلبي يخفق كخفقاته فى العشرينات . لم أعد ذلك الرجل الوقور الهادئ ، الذى استقر بعش الزوجية . وإنما صرت طائرا خفيف الوزن ، أكاد أطير فرحا فى سماء جديدة . صارت أمنية إنسانة لطيفة ورقيقة . ولم أدر ما حدث لي بالضبط ؟ مشاعر غامضة جعلتني أدنو منها ، وقلبي يرقص فرحا . لا أدري لأي هدف أو غاية . واختلقت مناسبة عيد ميلاد ابنتها ، وزرتها ومعى هدية . فرحت بي وقدمتني لأمها المسنة وصديقتها ميرفت ورجاء . والتفطنا نحن الخمسة حول أمانى . تعمدت الوقوف بجانب أمنية ، أحقق رغبة صبيانية بأن أقترب منها ! وهل اقتراب جسمي بجسمها يحقق ما أريد ؟ ماذا أريد ؟ أهى ترجمة عفوية لشيء لا أدريه ؟

كنت سعيدا حقا وفى أحسن حالاتي .

شعرت بارتياح لاننى صارحت زوجتي بأني ذاهب الى حفل عيد ميلاد أمانى . اعتذرت هى ، وألححت عليها كى تصحب محمود وعلاء ، فتعللت بوعكة ألت بها . وفرحت لطيفة زوجتي .

عدت فى مساء متأخر لأجدها نائمة تحتضن الولدين . لم أشأ إيقاظها . وقضيت الليل يقظا أفكر فى أمنية . ولا أدري حقيقة مشاعري . كل ما أدريه أنى أحببت شيئا غامضا يدفعني للقاء بها . هذا الشيء الغامض لا

أدري كنهه . . . أهو حب أم عطف أو صداقة أم تعويض لفراغ عاطفى أم هو كل ما ذكرت ؟!

رائحة الفل تعبق بمكتبي . وأصبحت محل حسد الزملاء الذين يتقاطرون علي من حين لآخر ، تجتذبهم الرائحة الاثيرة . حريصة هى على باقة الفل كل صباح . وعطر داخلى يضمخ أعطافى . وكان ميلاد جديد لعصفور الحب بقلبي . هل أنا قادر على البوح ؟ . اكتشفت عجزى . كل ما أستطيع ، حديث مكرر حول مشاكل العمل وزحام المواصلات وعبث الاولاد . ذات مرة تجرأت فقلت :

– رائحة الفل تعطر مكتبي ، أشكرك يا أمنية .

افتر ثغرها عن ابتسامة صامتة .

وكان ذلك قصارى ما استطعت قوله .

لماذا يتحول القلب ؟ . أم انى أعيش مرحلة ليست مناسبة ؟ .

وذاذ ليلة ، حلمت بأمنية . تنام معي في فراشى . يا لجرأة الاحلام التى أرتنى جسدها الابيض الناعم . ! كان حلما لذيذا صحت منه على ضجيج الاولاد وصراخ الام : <http://Archivebeta.Sakhril.com>

– البس يا محمود . وأنت يا علاء ، ضع كتبك فى الحقيبة .

هل كان الحلم تعويضا لشيء ينقصني ، أم انه يكشف رغبتى الحبيثة التى خبأتها فى الحنايا حفاظا على ما يسمى بالاصول ؟ .

وجالستها فى الصباح ، حدثتني عن تسلط المدير ، وكنت صموتا أجتز الحلم وأعجب ندنيانا ، ففي السرائر عالم غير عالمنا الذى نعيش . وهل بمقدوري أن أحكي الحلم دون أن تسيء الظن ؟ . شيء خفي جعلني أحلم حلما يزيل قشرة ناعمة تشبه غلاف السلفان الرقيق الذى لا يستر شيئا .

أقول الصدق بأنى بالامس حلمت بها امرأة بين ذراعى ؟ .

بالطبع لم أقل ، وتدفرت بالصمت وشاحا .

حسنى سيد لييب

الفهرس

العدد الثالث (جويلية - سبتمبر 1989) المجلد الواحد والعشرون

3	قصص	تصدير
5	التابعي الأخضر	الحانة الملعونة
13	تعريب : علي ساسي / محجوب العياري	الأرز الأسود
21	سمير أحمد الشريف	المأزق
25	محمد الخموسي الحناشي	عطاء حتى الموت
31	نتيلة التباينية	أرانب وكلاب
37	مسعودة أبو بكر	الحبل السري
40	مصطفى الكيلاني	الزمن ومدلولاته الفنية والحضارية في أقاصيص أبو بكر العيادي
51	سعيد المحروق	الوجه الثالث للعملة
63	حليمة مصباح	عندما تتشابك خيوط النسيج
69	عبد الحميد عبد الواحد	صورة البطل في «حدث أبو هريرة قال»
76	تعريب : أبوبكر العيادي	في وضوح النهار
85	تعريب : بوراوي عجينة	لعبة الفقير
88	ميزوني البناني	قرأت العدد الأخير
93	خديجة الجويني	مسرد القصة التونسية